الرثاء

في شعر باشراحيل

محيي الدين صالح

الطبعـــة الاولـــى

أبريل : ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع : ٢٠٠٤ / ٢١٢٣٥

صـــدر الكتـــــاب

تحـت رعايـــة

النادى النوبى الثقافى

بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء ..

إلى بغـــداد ..... الـتي كُتـب
عليهـا أن تدفـع ثـــمن غيبــة
معــاني الوفــــاء عنــد ورثـة
الـحضـــــارة الإســـــــلامية ،
ولا أقـول أبنائها .

على سبيل التقديم

أ. د. طه وادى

أين يا صاح المسرة والحياة المستقرة ؟
كم نرى فيها نعيماً وشقاءً ومضرة ؟
فخداعٌ هذه الدنيا وبلوى مستقرة
من قصيدة " هذه الدنيا "
عبد الله باشراحيل
(الأعمال الشعرية ١/١٢٩)

الرثاء .. غرض أصيل وموضوع نبيل من محاور الشعر العربي منذ العصر الجاهلي حتى اليوم . وإذا كان المدح يدور حول وصف مآثر الأحياء ، فإن الرثاء يتشكل حول تقدير فضائل الموتى . بل ربما كان الرثاء يصدر عن مشاعر أعمق وعاطفة أصدق ، لأن الشاعر الراثي لا ينظم شعره في من يرثيه بناء على رغبة أو رهبة . ثمة حقيقتان مؤكدتان في هذه الحياة : الحياة والموت - الميلاد والدفن . والحزن في ساعة الموت وساحة الفناء أقوى من السرور في لحظة الميلاد . السرور والفرح عاطفة مؤقتة ، لكن ألم الفراق وكارثة الفناء تخلفان أحزاناً سرمدية وتعاسة قد تكون أبدية ، لذلك كان الشاعر الرومانسي " ألفرد دى موسيه " - على حق حين ذكر : " لا شيء يجعلنا عظماء سوى ألم عظيم .. " .

وربما كانت هذه الفكرة هي التي سيطرت على الشاعر (عبد الله باشراحيل) ، والناقد (محيي الدين صالح) .. ومن هنا ظهر موضوع هذا الكتاب " الرثاء في شعر باشراحيل " للصديق الشاعر الناقد / محيي الدين صالح . وهو كتاب يصدر فيه عن ثقافة أدبية واسعة ، سيطرت عليه - بقوة - وهو يتناول فصول هذا الكتاب ، بل ربما أدى الاستطراد إلى دراسة بعض قضايا عامة قد تغلب أحياناً على الموضوع الأصل .

والشاعر عبد الله باشراحيل رغم انضواء شعره نحو ضفاف الرومانسية الرحبة ، فإنه لم يتجاهل موضوع الرثاء .. ولم ينس قضية الموت ، انطلاقاً من إيمانه العميق بالله .. وبأن ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإِكْرَامِ ﴾ . والله الموفق إلى أهدى سبيل .

أ. د. طه وادى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

مارس ٢٠٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الدراسة

يمتاز الأدب العربي بكثرة الروافد وغزارتها ، وفي نفس الوقت بصفاء المتوارث منه ونقائه برغم تدفقه عبر مئات السنين ، حتى وإن شابه أو اعتراه ما يكدره ، فمن اليسير نقده وإظهاره وتفنيده .

وما دام الشعر ديوان العرب - كان كذلك وما زال - فإن الدراسات التي تصب حول الإبداعات الشعرية ينبغي أن تحرص تماماً على العمق الإنساني ، ويجب عدم تسطيح الدوافع التي جعلت المبدع يتفاعل مع أمور بعينها ويعرض عن أمور .. أو أن يجيد إجادة تامة في جوانب من إبداعاته ربما لا يصل إلى مستواها في جوانب أخرى .

ونظرية (مفتاح الشخصية) التي أورثها لنا الأديب العملاق / عباس العقاد من خلال عبقرياته الخالدة ، أرى أن لا نهملها كلما

أردنا الغوص في أعماق الرجال الذين ألقت بهم أقدارهم في دائرة الضوء عرضة للتناول والتمحيص طوعاً أو كرهاً .

وإذا كان حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول : " المرء بأصغريه قلبه ولسانه " وعلى اعتبار أن (اللسان هو ترجمان القلب) كما جاء في الأثر فإن صعوبة متابعة القلب وما حوى باعتباره في منطقة شبه المغيبات يجعلنا نقيم لحصائد الألسنة اعتباراً ووزناً ، ونقدره حق قدره ونحاول ذلك ما أمكن ، خاصة إذا كان صاحب هذا اللسان ممن نحسبهم على خير في صدق روايتهم ورؤاهم .

وعندما يكون الكلام عن أولئك الذين لا يرتجى منهم المتحدث أو الكاتب نفعاً ولا يخشى منهم ضرراً ، فإن المشاعر تتدفق منه أو عنه بصدق وعفوية ، خالية من التملق والنفاق - وهذا هو حال الرثاء في الشعر العربي في أكثر حالاته - وليس معنى ذلك أن الكلام عن الأحياء مرذول جملة وتفصيلاً ، ولكن الموازين النقدية

ترجح بكفة المراثي عند المقارنة ، فتكون أصدق قيلا ، وأفصح تأويلاً لمن أراد أن يدرس النص الإبداعي من كل جوانبه بالإضافة إلى صاحب النص وإيحاءاته وتلميحاته بجانب تصريحاته .

وهذا هو السبب الذي جعلني أميل إلى دراسة المراثي في شعر عبد الله باشراحيل من بين إبداعاته الكثيرة في كل الأغراض الشعرية قديمها وحديثها ، وثمة سبب آخر لهذا التوجه الأدبي عندي ، وهو أن الوجدانيات المتناثرة في كل قصائده تمتاز بشفافية الرثاء ومفرداته ونفحاته ، وربما آلامه وأحزانه .

أما لماذا باشراحيل بالذات ، في هذا العصر الذي كاد يئن من كثرة الشعراء . فهذا لا تفسير له عندي ، إلا أن أعزيه إلى تقارب الاهتمامات والانفعالات الوجدانية بيني وبينه كشعراء من جيل واحد رغم التباعد المكاني بين وادي النيل (موطني) وجزيرة العرب (موطن باشراحيل) . وربما يعزى هذا الأمر إلى قول رسول

ا لله صلى ا لله عليه وسلم : " الأرواح جنود مجندة ما تعـارف منهـا ائتلف ... " .

وباشراحيل لا يكتفي برثـاء الأحبـاب الذيـن رحلـوا عنـه ، بـل يرثي البلاد والقيم والآمال والمعاني والفضائل وكل غائب يفتقـده ، كما أنه يرثي الزمـان أحيانـاً ولا يستنكف مـن أن يرثـي نفسـه إن لزم ، واتجاهات الرثاء عنده تستحق التأمل ، ولا أقول التوقف عنـد كل جزئية ، والعاطفـة الصادقـة والحس الديـني عنـد الشـاعر لهمـا حضور قوي يجعلك تحترم أطروحاته ورؤاه .

أما الشخصيات التي يرثيها باشراحيل ، وتوجهـاتهم الفكريـة أو الأدبيـة ومكـانتهم في المجتمـع ، فذلـك أمـر لـه مدلـول راق ويجـب توضيحـه في تفصيـل مناسـب ، وكذلـك هنـاك أثـر البيئـة والتنـوع الأسلوبي وخصوصية المضامين والقـاموس اللغـوي والبحـور المنتقـاة والقوافي المناسبة لجو القصيـدة .. فكـل هـذه جوانـب لا نمـر عليهـا مرور الكرام . خاصة أننا أمام شاعر جعل (الوفاء) حجـر الزاويـة

في كل إبداعاته ، وتعلق قلبه بكل من رأى أنه يتصف بالوفاء ، وفي ذلك يقول :

إن الوفـــاء ردائي ، كيف أخـــلعـــــه

وقد كفاني ، وإن ذموا وإن مدحوا [1]

وأنا في هذه الدراسة لست ذاماً ولا مادحاً ، ولكنها جولة أدبيـة بين القوافي أجوس خلالها وأغوص فيها إلى الأعماق ، عـبر خيالاتـه وبواسطة كلماتـه المجدولـة ، لأستخرج مـا قـد يخفـى علـى مـن لا يجيدون الغوص ، فأقدمهـا لهـم زاداً في رحلتهـم نحـو دروب الأدب العربي .

هـذا ، وقـد اطلعـت علـى ثـلاث دراسـات في شـعر باشـراحيل اتسـمت بالموضوعيـة والجديـة والحيـدة ، الأولى للدكتـورة / إيمـــان بقـاعي العنـوان : (الالـتزام الإنسـاني في شـعر باشـراحيل) ٣٠٠ صفحـة - ركـزت فيهـا الكاتبـة علـى الوطـن عنـد الشـاعر . أمـــا

(١) من قصيدة (فارس الشعر) قناديل الريح جـ ٢ .

الدكتور / محمد بن مريسي الحارثي فقدم دراسته بعنوان (جدلية الواقع والتخيل) وأشار فيها إلى لوعة الرثاء عند باشراحيل وحدة العاطفة وقوتها . وركز خلالها على رثائه لأبيه ولعمته . وعرج إلى بعض النماذج الأخرى ، إلا أن الدراسة شملت كل قصائد ديوان (قناديل الريح) .

أما الأستاذة / غريد الشيخ ، فقدمت دراسة مستفيضة بعنوان (الدلالات الفنية والإنسانية في شعر باشراحيل) في أكثر من أربعمائة صفحة . طافت بل حلقت في آفاق الشاعر ، وحطت عند كل مرفأ من مرافئه وحللت كل الجوانب الإبداعية عنده ، إلا أن الرثاء عند باشراحيل لم يستهلك من هذه الدراسة الشيقة سوى (اثنتي عشرة صفحة) فقط . ربما لأن الكاتبة كانت تدور في آفاق شاسعة بين قصائد متنوعة كثيرة جداً من إبداعات باشراحيل .

ومن المؤكد أن هناك دراسات أخرى في شعر باشراحيل لم أطلع عليها .. كما أن هناك دواوين أخرى للشاعر لم تصل إليّ وبرغم

ذلك .. فإن ما بين يدي من إبداعات ودراسات اعتبرها كافية لتبرير ما ذهبت إليه من ضرورة الدراسة المتخصصة أو المخصصة للرثاء عند باشراحيل .

وإذا سلمنا بالمقولة التي ترى أن " الرجل صندوق مغلق لا يعرف ما بداخله إلا إذا تكلم أو تحرك أو تصرف " ؛ فإن باشراحيل في قصائده المتنوعة تكلم وتحرك وتصرف فأصبح كتاباً مفتوحاً يقرأه الجميع ، وكلٌّ يتفاعل مع الأطروحات التي يجد فيها مبتغاه ، أو توافق هواه .

ومن خلال الرؤى المكثفة في الأغراض الشعرية المتنوعة ، يتضح أن باشراحيل إنسان مرهف الحس إلى مدى بعيد ، وفي نفس الوقت شديد الاعتداد بالنفس ، مع ما يبدو من تباين بين الصفتين ، وفي نظرته للأمور فإنه يغوص إلى الأعماق ليقف بقرائه عند بعض الجوانب الخافية في ثنايا الأمر ، فلا يكتفي بمدلولات السرد للحدث ولا بظواهر المعاني وهذا التوجه عنده مؤصل أكثر ما يكون في

قصائد الرثاء ، والشواهد على ذلك كثيرة عرضت بعضها في فصل (الرمزية في الرثاء) بقليل من التفصيل ، وأيضاً في فصل (الرثاء وإسقاطات الألم) .

و لم يتحفظ باشراحيل في عرض مكنوناته من مشاعر ومخاوف ، حتى الهواجس التي راودته بسبب غياب رموز فكرية عن الساحة الإسلامية ، لم يحاول أن يحجمها أو يصادرها ، فهو صريح مع النفس ومع الآخرين ، والبعد الذاتي عنده ينال حظه كاملاً كما في رثائه لوالده أو عمته ، فهو يوفيهما حقهما بأسلوب يشي بمدى التقارب الذي كان بينهما في عصر ذهل فيه ذوو الأرحام وتاهوا في معترك الحياة ، مع أن باشراحيل ربما لا يقصد ذلك حيث لم يصرح به " تأدباً " .

وجدير بالذكر أن باشراحيل لم يصدر ديواناً خاصاً بالمراثي ، ولكنها قصائد متفرقة في مجموعة دواوينه ، وهذه المجموعة حوت كل الأغراض الشعرية التي أبحر من خلالها إلى مرافئ القراء ، أما

ديوان " قلائد الشمس " الذي صدر عام ٢٠٠٢ فقد خصصه كله لقصيدة مطولة يوجهها إلى مثقفي أمريكا مترجمة إلى الإنجليزية والفرنسية ، والقصيدة بترجمتيها بين دفتي الديوان ، إذن هي رسالة عبر القوافي تخاطب الوجدانيات التي يظن باشراحيل أنها قد تتجاوب معه من الأحياء الذين يشاركوننا في التفاعل مع الأطروحات الأدبية ، وبالتالي لا مكان لأية معان رثائية في هذا الديوان ، أما ديوان " وحشة الروح " بالإضافة إلى مجموعة " الأعمال الشعرية " التي تحوي مجموعة من الدواوين التي صدرت في أوقات متفرقة خلال رحلته الشعرية ، فهي التي تتناثر فيها كل معاني الرثاء التي تنضح بها وجدانيات باشراحيل ، سواء كانت قصائد رثاء أو قصائد أخرى .

وكأن باشراحيل لم يكتف بقصائد الرثاء ، فقام بإهداء ديوان " وحشة الروح " بما نصه " إلى شهداء الأمة .. من ثورة الجزائر إلى انتفاضة فلسطين " كما أهدى الدواوين الأخرى إلى ذات الرموز التي يكن لها كل الحب والتقدير (الوالدين - الوطن - الأحباب)

وصاغ بعض الإهداءات نثراً وبعضها نظمها شعراً . وهذا الأسلوب المتنوع في الإهداء دليل على تغلب ملكية الشعر على الشاعر .

وبالنسبة لقصائد الرثاء نجد ثلاث عشرة قصيدة في ديوان " قناديل الريح " وقصيدتان في ديوان " وحشة الروح " وقصيدة واحدة في كل من ديوان " الهوى قدري " وديوان " الخوف " بإجمالي سبع عشرة قصيدة ، بالإضافة إلى بعض الرثائيات المبثوثة بين طيات قصائد أخرى . أما الشخصيات التي يرثيها باشراحيل فإنها صاحبة مكانة في قلبه بعيداً عن المجاملات أو الرسميات . وهذا واضح في صفاتهم ومواقفهم وتوجهاتهم الفكرية والأدبية وصلاتهم بالشاعر .

ولو تحدثنا عن الأعمال الشعرية بلغة أهل الرواية ونقادها ، فإن أبطال باشراحيل وشخوصه كثيرة جداً ، وأنا أعتبر أن كثرة الشخوص في العمل الشعري لا يعيبه ، ولكنه يوضح اتساع دائرة المبدع وعلاقاته الوجدانية وتفاعلاته الاجتماعية .

ولعدم معرفتي ببعض الشخصيات التي رثاها باشراحيل ، فقد استعنت بالأستاذ / صلاح رشيد لإلقاء حزمة ضوء على هذه الشخصيات ومآثرهم ، للوقوف على مدى صدق التجربة الشعورية عند الشاعر ، وذلك عند صياغة الفصل الخامس من هذه الدراسة تحت عنوان (شخصيات الشاعر في الرثاء) .

أما " الرثاء " كمصطلح في الأدب العربي ، فإنه تبلور عبر مراحلِ عديدة بدءاً من العصر الجاهلي مروراً بالعصور الإسلامية المتعاقبة وحتى الآن . وسيأتي تفصيل لذلك في التمهيد مقروناً ببعض الشواهد والأسانيد .

وإذا سلمنا أن من فنون البلاغة والبيان ما يقال عنه (مدح في صورة ذم أو ذم في صورة مدح) ، فهل يمكن أن نطبق نفس النظرية على الأغراض الشعرية ؟ فنقول إن قصائد الرثاء ربما تأتي في طيات الأغراض الأخرى أو العكس .. أطرح هذا التساؤل لأن قصائد باشراحيل المتنوعة نجد فيها الرثاء قاسماً مشتركاً بنسبة ولو

قليلة ، وكان الرثاء هو (الغائب الحاضر) في كثير من القصائد التي صيغت في أغراض شعرية أخرى ، وهذا قد يستشف منه حساسيته المفرطة في علاقاته ووجدانياته ومشاعره نحو الآخرين . كما أن ذلك يوحي به التداخل غير المذموم بين الأغراض الشعرية عند باشراحيل والذي يذكرنا بالشعر العربي الأصيل في أزهى عصوره سواء كان الشعر الجاهلي أو الإسلامي .

ولقد استطاع باشراحيل من خلال كلماته المجنحة وقوافيه المحكمة أن يفرض نفسه على وجداناتي كما فرضها من قبل على الساحة الأدبية العربية ، وإذا أردت أن أقدم عنه موجزاً في هذه الدراسة على سبيل التذكير وليس التعريف . فهو :

الأديب الشاعر الدكتور / عبد الله محمد صالح باشراحيل . من شعراء المملكة العربية السعودية المعروفين والمتميزين . رئيس مجلس إدارة مستشفى محمد صالح باشراحيل بالمملكة .

- عضو في كثير من الهيئات والاتحادات والروابط الأدبية والاجتماعية والإنمائية والعلمية في كثير من اقطار العالم العربي وعضو مؤسس لمؤسسة الفكر العربي .
- أنشأ جائزة سنوية لتشجيع وإثراء حركة الإبداع العربي وذلك باسم : (جائزة باشراحيل للإبداع الثقافي) .
- له أكثر من اثنى عشر ديوان شعر ، (جمع بعض هذه الدواوين في مجلدين كبيرين) كما أصدر بعض الدراسات الأدبية والمقالات النقدية المتنوعة .
- قدم أعماله للقراء كثير من الشعراء العرب الكبار كما كتب عنه كثير من الدارسين والباحثين .
- ترجم بعض أشعاره إلى اللغة الفرنسية واللغة اليونانية .

وسواء كان الرد على التساؤل الذي طرحته من قبل عن تداخل الأغراض الشعرية بالإيجاب أو بالنفي ، فإنني سأسلك بكم طريقاً في بحور باشراحيل حسب قناعاتي النقدية (لا أخاف دركاً ولا أخشى) لأن كثرة الأودية التي تمر خلالها دروب المبدع باشراحيل

لا تغني عن واد مؤصل أثير لديه . وهذا الـوادي يحط عنـده رحـال باشراحيل كلما غـدا أو راح بـين أغراضـه المتنوعـة . ومـن أراد أن يرتوي من عذب منهله "فليتبعني وراء هذا الوادي" .

١ / ٣ / ٢٠٠٤

تمهيد

" المرثية والرثاء في اللغة والاصطلاح "

يرتبط المدلول اللغوي للمرثية والرثاء بالميت والبكاء ، وهما في الأصل مصدر للفعل (رثى) فيقال : رثيت الميت رثياً ورثاءً ومرثاة ومرثية . ويدل رثى في أصله اللغوي على التوجع والإشفاق . يقول ابن فارس : إن اجتماع الراء والثاء والحرف المعتل أصلي في الثلاثي ، ويدل على رقة وإشفاق ، يقال رثيت لفلان أي رققت . وجاء في اللسان : رثى له أي رقَّ له ... وتوجع ، ويقال : ما يرثي فلان لي أي ما يتوجع ولا يبالي [1] .

والمرثية والرثاء في اللغة : بكاء الميت وتعداد محاسنه . فيقال : رثى فلان فلاناً يرثيه رثياً ومرثية ، إذا بكاه بعد موته ، ورثوت الميت أيضاً إذا بكيته وعددت محاسنه .

---

(١) مقبول بشير النعمة : المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام ، ص ١٣ .

وينطوي الرثاء في دلالة أخرى على النواح ، فكان يقال النائحة : أنها ترثّى [1] ورثاء المرأة : النياحة ، والمرأة الرثاء . والرثاية : النواحة . فالرثاء هو : النواح .

ولا نجد ذكراً للشعر في مدلولهما عند اللغويين المتقدمين أمثال الخليل وابن دريد والأزهري ، لكنا نراه بدأ بالظهور عند الجوهري ويتابعه بعد ذلك بقية اللغويين ، يقول الجوهري : " رثيت الميت مرثية ورثوته أيضاً بكيته وعددت محاسنه ، (وكذلك إذا نظمت فيه شعراً) [2] إضافة من الجوهري على القدماء تلك العبارة الأخيرة ، كما أن ابن فارس يضيف أيضاً عبارة : "ومن الباب قولهم رُثي الميت بشعر" [3] .

ولعل هذا الاستدراك جاء نتيجة للحركة النقدية التي برزت في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، وأسهمت في تخصيص مدلول الرثاء بالموضوع الشعري ، أي أن للرثاء مدلولاً واسعاً هو التوجع والإشفاق أخذ يتخصص أكثر بالشعر وموضوعاته .

(١) الزمخشري : أساس البلاغة ، ص ٢٢١ .

(٢) انظر : الجوهري : الصحاح .

(٣) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ، ص ٢/٤٨٨ .

وقد أخذ مدلول المرثية يرتبط بالقصيدة ، أو القطعة الشعرية من خلال ارتباطه بالعدد فيقال : "رثيت الميت بشعر قلت فيه مرثية . وقد ورد جمع المرثية على مراثي و لم يرد جمع للرثاء [1] .

أما الرثاء فقد بقى على دلالته العامة وهي البكاء على الميت والإشفاق عليه ونظم الشعر فيه ، فالمرثية إذن هي القصيدة أو القطعة الشعرية . أما الرثاء فهو الإشفاق والحزن وهو أمر معنوي .

و لم نجد لدى النقاد القدامى تحديداً وتمييزاً اصطلاحياً واضحاً بمفهوم (المرثية) و (الرثاء) ، لكننا يمكن أن نستشف من خلال الاستعمال الأدبي لهما من قبل النقاد أن المقصود بالمرثية هو القصيدة ، وأن الرثاء هو الموضوع الشعري ، فلقد اهتم النقاد القدماء بالمرثية بوصفها قصيدة شعرية ، فاختاروا أجودها وجعلوا لأصحابها طبقة بين طبقات الشعراء ، وأشاروا إلى الضعيف منها وبينوا أسباب هذا الضعف ، كما أنهم استجادوا عدداً من مقدماتها

(١) مقبول بشير النعمة : مرجع سابق ، ص ١٤ .

وعابوا الأخرى ، وتحدثوا عن الأساليب والمعاني والأوزان اللائقة بها ، واهتموا كذلك بالرثاء بوصفه موضوعاً شعرياً بين الموضوعات الشعرية الأخرى ، وتحدثوا عن درجة الحزن وعلاقتها بالرثاء ، وعن طبيعة المرثي ودوره في التأثير على موضوع الرثاء ، وعلى معاني الحزن العامة [1] .

إن المدلول اللغوي للرثاء الذي تعارف عليه القدماء أصبح بمرور الزمن يمثل المدلول الاصطلاحي له ، وهكذا يرى مؤلف كتاب (المراثي الشعرية) أن مصطلح الرثاء في الدراسات المعاصرة يعني بكاء الميت وتعداد محاسنه بالشعر والنثر ، أو هو موضوع أدبي يقوم في بنيته الأساس على الحزن على الميت .

وعلى هذا تكون المرثية هي الأثر الأدبي الذي يتخذ الرثاء موضوعاً له .

(١) مقبول بشير النعمة : المرجع السابق ، ص ١٥ .

ولما للتأبين من علاقة بالرثاء نشير هنا إلى معنى التأبين ، فقد جاء تحت مادة أبّن : وأبن الرجل تأبيناً وأبنه مدحه بعد موته وبكاه ، وقال شمر : التأبين الثناء على الرجل في الموت والحياة (١) .

وجاء أيضاً : وندب الميت أي بكى عليه وعدد محاسنه ، يندبه ندباً ، والاسم الندبة بالضمّ ، وندب الميت بعد موته من غير أن يقيد ببكاء ، وأن تذكر النائحة الميت بأحسن أوصافه وأقواله (٢) .

وكما نلاحظ فهذه الألفاظ وإن تباينت طبيعة حروفها فإن معانيها في معظمها واحدة ، تطلق ويراد بها تعداد شمائل المرثي وتأبينه ، وإظهار اللوعة والأسى والتحسر على رحيله عن الحياة تحسراً يملؤه التفجع الصادق النابع من قلب الراثي الوفي لمن يؤبنه .

ولا غرو في هذا فالرثاء غرض قديم وجديد أيضاً لأنه متعلق بوجدان الإنسان ، والإنسان الحساس غير مقفر الوجدان ولا جاف الطبع ، والأحزان تفجر في الإنسان ينابيع ثرة من الفن الصادق .

(١) ابن منظور . ت عبد الله علي الكبير وآخرين : لسان العرب ، دار المعارف ، ص ٣/١٥٨٢ .

(٢) ابن منظور : المرجع السابق ، ص ٦/٤٣٨٠ .

والرثاء يعد من أصدق الأغراض الشعرية لأنه يخلو من الطمع والحاجة إلى المكافأة بل ينبع من الإخلاص والصدق . إنه لمحة وفاء تشرق في الروح وتنهمز مع الدموع وتنساب من الشفاه نشيداً مثخناً بالجراح موسوماً بالصدق (١) .

إذن الرثاء في الحقيقة : فن تصوير العواطف الملتهبة والقلوب المكلومة ، والنفس البشرية إذا كلمت نفّست عما بداخلها من حزن على فقيدها الذي كان يملأ عليها الدنيا .

وقد راج هذا الفن رواجا عظيماً في شعرنا العربي لأنه وثيق الصلة بنهاية المخلوق في هذه الحياة .

"الرثاء فلسفة بكاء الذات باستدعاء مواقف الراحلين وتمثل ما بعد الحياة الدنيا ، والتحسر هو التحسر نفسه على فقد الفرص السانحة للاستعداد من خلال تأمل مواكب الآفلين" (٢) .

---

(١) د. صابر عبد الدايم : محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة ، دار المعارف ، ص ١١٨ .

(٢) د. زهران جبر : آراء في الحياة والموت .

ولذا كان الرثاء مقترناً بالموت ، وليس هناك أمة لم تعرفه ، وعلى ذلك فهو موجود عند كل الأمم وفي كل العصور ، كذلك هو الفن الذي لم يخل منه ديوان شاعر ولا شاعرة ، حتى اشتهر بعض الشعراء والشواعر به . وعد علامة بارزة في أشعارهم أمثال الخنساء وجليلة بنت مرة ، وليلى الأخيلية وغيرهن كثير من الرجال والنساء ، وقد سجل مؤرخو الأدب على مر العصور تراثاً أدبياً ضخماً من هذا الفن فأضافوا إلى التراث الإنساني تراثاً تليداً وطريفاً أثرى الصفحات الأدبية بكم هائل من القصائد بل من عيونها .

وقد أهمل كثير من النقاد – خاصة القدامى منهم – فن "الرثاء" ولم يعدوه فناً مستقلاً من فنون الشعر ، وإنما عدوه من باب المديح ، فابن رشيق يقول : "أكثر ما يجري عليه أغراض الشعر خمسة : النسيب والمديح والهجاء والفخر والوصف" [(١)] ، ومرة أخرى يعده ركنا من أركان الشعر فيقول : "إن الشعر بني على أربعة أركان المدح والهجاء والنسيب والرثاء" [(٢)] .

---

(١) ابن رشيق : العمدة ، ص ١/٧٧ .

(٢) ابن رشيق : المرجع السابق ، ص ١/٧٨ .

ومنهم من أهدره جملة فقال : "قواعد الشعر أربع ، الرهبة والرغبة والطرب والغضب ، فمع الرغبة يكون المديح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار ، ومع الطرب يكون الشوق ، ومع الغضب يكون التوعد" [1] .

وقال ابن سلام : "إن التأبين مدح الميت والثناء عليه والمدح للحي [2] . وقال قدامة : "ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنها لهالك مثل كان وقضى نحبه وما أشبه ذلك ، وهذا ليس يزيد عن المعنى أو ينتقص منه لأنه تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح به في حياته [3] .

وهذه نظرة بلا شك تغفل العنصر الوجداني إغفالاً واضحاً وتنسى الجو النفسي المسيطر على الراثي ، وهو جد بعيد كل البعد عن جو المدح .

(١) أبو تمام : ديوان الحماسة ، ص ٤٥٨ .

(٢) ابن سلام : طبقات القراء ، ص ١/٥٠ .

(٣) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، ص ٥٩ .

تلك على أية حال نظرة غير متعمقة مبنية على غير تحليل واستقصاء يستوي بها أن ترثي فقيداً والقلب موجع حزين وأن تمدح حياً والنفس تفيض بهجة وسروراً ، ولا يستوي الأمران ، ولذا جعلوا فن الرثاء أصعب فنون الشعر لأنه أولاً : لا يعمل على رهبة أو رغبة ، وثانياً : لأنه يقوم على الصدق والإخلاص وما أندرهما ! .

وحصر أسباب الانفعال الوجداني - كما هو عند النقاد القدامى - في الرغبة والرهبة ، يجعل الشاعر حين ينقطع رجاؤه في الميت أو خوفه منه ، يشق عليه أن يرثيه ، وهم هنا يلغون من حسابهم الانفعال بالأسى أو الحزن لفقد عزيز أو الصدمة التي تهز وجدان الشاعر حين يواجه مأساة بشرية في موت ابن وحيد أو ابنة أو أم ... الخ .

ذلك لأن الرغبة عندهم كانت تعني الطمع في عطاء حاكم أو أمير ، بدليل أنهم حصروا الرهبة في الاعتذار والاستعطاف ، وفاتهم

أن ينتبهوا إلى مثيرات أخرى للرهبة كالشجن : شجن الفراق الذي لا لقاء بعده والخوف من وحشة الفراغ الذي يتركه موت عزيز ، بل ربما فاتهم أن يتلفتوا إلى رهبة الموت نفسه [١] .

ويروى أن أحمد بن يوسف قال لأبي يعقوب الحزيمي : أنت في مديحك لفلان ... أشعر منك في مراثيك له فقال أبو يعقوب : كنا يومئذ نعمل على الرجاء ... ونحن اليوم تعمل على الوفاء [٢] .

ولقد قالوا أيضاً : "ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلاً أو امرأة لضيق الكلام فيهما وقلة الصفات [٣] .

وهو قول جد غريب إذ لا نستطيع أن نتصور ما هو أفدح على الشاعر وأقسى من انطفاء الحياة في الولد طفلاً يتفتح للحياة أبعد ما

(١) د. طه عبد الحميد زيد : فن الرثاء بين الرجال والنساء في العصر الحديث ، ص ٧ .

(٢) ابن رشيق : مرجع سابق ، ص ١/٧٩ .

(٣) ابن رشيق : مرجع سابق ، ص ٢/٢٤ .

يكون الظن به في – المخلوقَ الضَّعيف قاصر النظر – أن يموت ، أو موت امرأة لا تعدو أن تكون أماً أو أختاً أو بنتاً أو زوجة .

وهذه النظرة قد محيت تماماً في الرثاء في العصر الحديث فنجد الآباء تنقطع نياط قلوبهم لموت الأبناء ، والأزواج لموت الزوجات ، بل أصبح من هول الفجيعة أن خصت المرأة زوجا بديوان خاص في رثائها كما هو عند الشعراء عبد الرحمن صدقي وعزيز أباظة والدكتور رجب البيومي . وكذلك خص الابن بديوان رثاء خاص كما هو عند الشاعرة سعاد الصباح . وغير أولئك كثير .

تطور الرثاء عبر العصور

كان الرثاء عند شعراء الجاهلية من الموضوعات التي تتصل اتصالاً مباشراً وواضحاً بالحماسة ، فقد كانوا يرثون أبطالهم في قصائد حماسية يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثأرهم ، فكانوا يمجدون خلالهم ويصفون مناقبهم التي فقدتها القبيلة فيهم ، حتى تنفر إلى حرب من قتلوهم ، وكان يشرك الرجال في ذلك النساء ،

فقد كن ما يزلن يُنحن علـى القتيـل حتـى تثـأر القبيلـة لـه ، وقمـن بالقسط الأكبر مــن نـدب الميـت وبكائـه ، وكـن يشـققن الجيـوب عليه ، ويلطمن وجوههن ، ويقرعن صدورهن ، ويعقدن عليه مأتمـاً من العويل والبكاء ، ومن خير ما يصور ذلك كتاب "مراثي شواعر العرب" للعويس شيخو [1] .

ومن الطريف عند شعراء الجاهليـة أن بعضهـم كـان إذا أحـسَّ داعي الموت ندب نفسه ووصف ما يصنعه به أهلـه بعـد المـوت مـن ترجيل شعره ووضعه في مدارج الكفن ، ثم لحده ودفنـه ، وتنسـب للمخرق العبدي أو ليزيد بن الخذاق قطعة يصـور فيهـا هـذا المصير الذي ينتظره يقول فيها :

هل للفتى من بنات الدهر من واق
أم هل له من حمـام الموت من راق

قد رجلوني وما رجلت من شعث
وألبســوني ثيـــاباً غـير أخـــلاق

(١) شوقي ضيف : العصر الجاهلي ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

وأرسلوا فتية من خيرهم حسباً
ليسندوا في ضريح الترب أطباقي

وكانوا يكثرون من تأبين من يموتون في ميادين الحرب ، وقد يضمنون هذا التأبين هجاءً لاذعاً لخصومهم وفخراً بعشيرتهم ومآثرها وأيامها [1] .

ولم يؤنبوا أبطالهم من القتلى فحسب ، بل فسحوا في مراثيهم لتأبين أشرافهم وإن ماتوا حتف أنوفهم ، فخراً بهم واعتزازاً بمناقبهم وأعمالهم ومآثرهم ، ونجدهم قد يستنزلون لهم الغيث من السماء حتى تصبح قبورهم رياضاً عطرة . ومن رائع تأبينهم مرثية أوس بن حجر لفضالة بن كلدة الأسدي وأولها [2] :

أيتها النفس اجملي جزعا — إن الذي تحذرين قد وقعا
إن الذي جمع السماحة والنـ — جدة والحزم والقوى جمعا
الألمعي الذي يظن لك الـ — ظن كأن قد رأى وقد سمعا

(١) شوقي ضيف : العصر الجاهلي ، ص ٢٠٩ .

(٢) أوس بن حجر : ديوان ، ص ٥٣ .

وكانوا أحياناً حين يذكرون الموت يتأسون ويتعزون عنه بأنه حوض لابد من وروده ، وقد سبقتهم إليه الأجيال الماضية من ملوك وغير ملوك .

وعلى هذا النحو ألمّ الشاعر الجاهلي بجوانب الرثاء االثلاثة من الندب والتأبين والعزاء . وكان رثاؤه غالباً يتعلق بأفراد ، وقلما تعلق بمجموعة من الفرسان .

ولما جاء الإسلام بما يحمله من عقائد وتشريعات كان له أثره الواضح في تطور السلوك الإنساني وسموه ، وبصورة خاصة عقيدته في اليوم الآخر التي أكسبت المؤمنين صفات كان الناس يفتقدونها قبلهم ، لعل من أبرزها الفاعلية بطبيعتها الشمولية والأخلاقية ، فقد أيقن الإنسان بالدور الذي خلق من أجله ، وكشف له القرآن سر الحياة والكون وعلمه كيف يسخر الطاقات الكونية لتحقيق أمثل لواجب الخلافة في الأرض فيتحول المؤمن إلى طاقة فذة في ميدان الفعل والإنجاز ... قدرة مذهلة في مجال العطاء والإبداع ... شعلة

متوهجة يمتد إشعاعها إلى أعماق التراث فيضيئها ويدفعها إلى آفاق العلم – فالمعرفة باليوم الآخر هي أقوى باعث على فعل الخير وترك الشر ، ولم يكن الإسلام ليحرك الفاعلية في الإنسان دون أن يمنحه الشعور بالسعادة والاطمئنان والأمان ولذا كان المؤمنون دائماً سعداء قبل أن ينتقلوا إلى الدار الآخرة ليضاعف لهم الجزاء ويكتسب صفة الدوام والخلود فقد تغير لون الحياة وطعمها بعد أن عرف الإنسان غايتها وجدواها إذ كان يظنها خلقت عبثاً : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا ﴾[1] فهي ذات قيمة عالية إذا ما استغلت الاستغلال الأمثل في طاعة الله .

ولذا أصبح الإنسان المؤمن لا يخشى الموت ولا يقلق بشأنه بل تقدم عليه إقداما إن كان في سبيل الله غير مبال بزينة الدنيا وبهرجتها . لقد بدأ تغيير مفهوم الموت يؤتي ثماره في مراثي صدر

(١) سورة ص : الآية ٢٧ .

الإسلام ، فنرى الاطمئنان إلى مصير المرثي والرضا بقضاء الله عز وجل حل محل الجزع والولولة عليه ، والتشاكي من الدهر وسبه ، والدعاء على النفس بالويل والثبور ، وبدا الشاعر الإسلامي يتحدث عن مصير المرثي وما يتلقاه من ترحاب وتكريم في الجنة ، ويلتمس الشاعر من الله عز وجل أن يثبه ويجمعه مع من يحب سوية في الجنة .

وقد اكتسبت المرثية الإسلامية بذلك حلة جديدة تزهو ألوانها بالمعاني الإسلامية التي تشع رضا وسعادة وأملاً . وأكثر ما يتضح ذلك في مراثي شهداء المسلمين .

وإدراكا من الشاعر الإسلامي بخطورة الشعر وأهمية دوره ودور الشاعر في الإسهام الحضاري ، أخذ هذا الشاعر يسلك مسلكاً آخر في مراثيه غير الذي كان متبعاً قبل الإسلام والذي كان يقوم على إرضاء الدوافع الذاتية للشاعر وخدمة العصبية القبلية حيث خرج من دائرته الذاتية وأخذ يسهم من خلال مراثيه في

المشاركة في الدفاع عن الإسلام والمسلمين والخوض في المعضلات التي يتعرضون لها ، كما أخذ يسهم في نشر تعاليم الدين الإسلامي ومفاهيمه ، وأكثر ما يتضح ذلك في مراثي الخلفاء الراشدين والشهداء وقسم من مراثي الأهل والأقارب [١] .

وفي عصر بني أمية والعباسيين تطور فن الرثاء كما يقول ابن رشيق : "كان من عادة العرب القدامى أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة والأمم السالفة والوعول الممتنعة في قلل الجبال ، والأسود الخادرة في الغياض ، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار ، والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها وذلك في أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر ، فأما المحدثون فهم إلى غير هذه الطريق أميل [٢] .

---

(١) مقبول بشير النعمة : مرجع سابق ، ص ٣١ .

(٢) ابن رشيق : مرجع سابق ، ص ٢/١٣١ .

ومع ذلك فقد استمرت بعض مظاهر الرثاء واتجاهاته القديمة وإن كانت قد أخذت في التضاؤل والانكماش لتخلي السبيل للمظاهر والاتجاهات الجديدة .

ومن الاتجاهات الجديدة في الرثاء خاصة في العصر العباسي وإن كان معظمه في عصر بني أمية رثاءً تقليدياً ، إخراج الرثاء مخرج الفكاهة والضحك حيث اتجهوا بالشعر وجهات جديدة فخرجوا به عن دائرة الأشخاص إلى آفاق أخرى معنوية أو حسية ، فإذا بنا نجد مطيع بن إياس يرثي شبابه لا في بيت أو أبيات عابرة ضمن قصيدة كما كان يحدث في القديم ، ولكن في قصيدة كاملة قصرها على هذا الرثاء ومنها :

إني لباك على الشباب ومـا	أعرف من شرتي ومن طربي
ومن تصابيَّ إن صبوت ومن	ناري إذا ما استعرت في لهبي
أبكي خليلاً ولي بهجته	بان بأثواب حدَّة قشب

ثم يتطرق الشاعر إلى بكاء شيء عزيز كان يملكه ويستشعر نحوه الوفاء والمحبة فيرثيه من مثل رثاء محمد بن أبي كريمة لقميصه الذي بلى ، بل رثوا الحيوانات الأليفة وغيرها كما فعل أبو نواس في رثاء كلب صيد له لسعته حية فمات في قصيدة طويلة أولها :

يا بؤس كلبي سيد الكلاب قد كان أغناني عن العقاب

كما بدأ الشعراء بداية القرن الثاني الهجري في رثاء الأوطان حيث زاد وعيهم بالرباط الذي يشدهم إليها ، ولعل أطول قصيدة رثاء في المدن في شعرنا العربي قصيدة الخزيمي في رثاء بغداد وقد روى الطبري منها مائة وخمسة وثلاثين بيتاً أتى فيها على تاريخ بغداد كله وصور منها نكبة بغداد أيام الفتنة بين الأمين والمأمون .

ومما لا شك فيه أن شعر الرثاء الذي كان يدعو منذ الجاهلية إلى التفكر والتدبر والنظر في حكمة الكون ، أصبح أكثر انشغالاً بهذه الأمور وأكثر تعمقاً فيها بعد انتشار العلوم والمعارف فيما بعد ،

كما أن الرثاء عامة قد أصبح في أيدي الشعراء الزهاد وسيلة للتذكير بالموت وتنبيه الغافلين عن اليوم الآخر [1] .

ويظل الرثاء فناً يستوعب مشاعر الحزن والتحسر على من مات قوامه الصدق ولحمته الإخلاص ودافعه الوفاء حتى غدا من أرق أنواع التعبير وأعمق ما يترجم عن الأحاسيس البشرية حتى اليوم .

(١) د. محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص ٤٦٤ وما بعدها .

اتجاهات الرثاء عند باشراحيل

عشق اللاهون أسمار العشايـــا
وعشقنـــا نحن ما بعد المنون

إنما الأرض عداوات ، وشكوى
وخطى تلهث في إثر الشجون [1]

في هذه الكلمات الموجزة المكثفة المعبرة ، يوضح لنا باشراحيل فلسفة الإبداع عنده ورؤيته فيما يجب أن يقال شعراً ، وكأنه عائد لتوه من رحلة زمنية بعيدة ، بعد أن ضرب على أذنيه في كهف البشرية سنين عددا ثم بعث بقناعات وخبرات اجتماعية جديدة تناسب هذا العصر الذي تحولنا فيه إلى تروس صغيرة في آلة ضخمة معقدة . وهذا يذكرنا بما فعله المتنبي من قبل حينما خرج على الناس بقصيدته الشهيرة :

(١) قصيدة متوية الحب : ديوان منابر الفجر ، ص ٦٩ (الأعمال الشعرية جـ ٢) .

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا

وعناهم من شأنه ما عنانـــا

وتولـــوا بغصـــة كلهم منه

وإن ســـر بعضهم أحيانـــاً

وبناء على هذه الخبرة المكتسبة ، قسم باشراحيل الناس إلى فئتين الأولى فئة (اللاهون) ، والفئة الثانية هي التي تشمله ضمناً ، وعـبر عنها في المقـابل بقولـه (نحن) في الشـطر الثـاني مـن البيـت ، وبـين الفئتين بعد شاسع ، ولم يعد الناس فيما يعشقون مذاهباً كمـا كـان من قبل بل صاروا مذهبين اثنين فقط حسب رؤية شاعرنا ، وكـل مذهب له مريدون وعشاق ، وهو في تقسيمه هذا أفضل مـني حـالاً ومآلاً ، فقد سبق أن قسمت الناس أيضاً إلى فئتين ، ولكني وضعت كل الناس في جـانب ووضعـت نفسـي وحيـداً في الجـانب الآخـر ، وذلك عندما كتبت قصيدة : (بيني وبين العـالمين)[1] سنة ١٩٩٥ وقلت فيها :

(١) من ديوان الجرح وأحلام العودة : صدر عن مركز الدراسات السودانية بالقاهرة ١٩٩٦م .

واهـــم من ظن أنّــا في الــرؤى متفقـــون

فجميـــع النـــاس نوع ، وأنـا خصـــم مبين

قسمـــة ضيزى - سبـــاق قاتل - أمر مشين

وتبارينا ، ليعدوا الكل في عكس اتجاه الآخرين

وانزعجنـــا من غياب العدل عند الـحاكمين

فذهبنـــا نتســور حرمـــة الـمحراب لكن

ليت عندي نعجة واحدة أكفلها للطـــــامعين

ونعود إلى تقسيم باشراحيل وأبياته ، فاللاهون عشقوا السمر في عشيات أخـاذة .. لابـد أن تكـون قـد أتـت بعـد ضحـوات هادئة وأمسيات هائـة ، وهـذه "العشـايا " - كمـا يسـميها الشـاعر - احتضنـت كثـيراً مـن الغـافلين الذيـن لا ينظـرون أبعـد مــن تحـت أرجلهم ، أما الشاعر ورفاقـه فقـد عشـقوا مـا هـو أبعـد مـن ذلـك بكثير ، ورحلوا بعقولهم وقلوبهم إلى ما بعد الضحـوات والعشـيات والدنيا كلها .. عشـقوا مـا بعـد المنـون وكـأنهم برمـوا بالحيـاة و لم يستسيغوا منها زماناً ولا مكاناً ، حيث يـرى باشـراحيل أن الأرض

عداوات وشكوى ، وخطى لاهثة خلف الآلام والمواجع ، وليس خلف الآمال والأحلام . ومن الواضح أن الشاعر في هذه الرؤية متأثر جداً بقوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ [1] .

وحقيق على من يرى الأرض ويصفها بهذه الصفات أن يتطلع إلى المرحلة التالية التي ستكون بعيداً عن الأرض التي لم يخلد إليها الشاعر ورفاقه ، ومن العجيب أن هذه الأبيات لباشراحيل لم تكن ضمن قصيدة رثاء ، ولا كانت من مجموعة (مرافئ الدمع) التي تتقاطر فيها دموع الشاعر على أحبابه الذين سبقوه إلى دار البقاء ولكنها أبيات في قصيدة (مئوية الحب) من مجموعة (منابر الفجر) . وهذا هو ما جعلني أشير في مقدمة الدراسة إلى تداخل الأغراض الشعرية ومشروعيتها وجمالها إذا أحسن التداول والتداخل .

وهذه الرؤية تذكرنا بأديبنا الكبير / عباس العقاد حين يقول :

حيران حيران لا نجم السماء ولا

(١) سورة البلد : الآية ٤ .

معالم الأرض في الغمـــاء تهديني

يقظان يقظان لا طيب الرقـــاد

يدانيني ولا سمر السمـــار يلهيني

وبرغم المسافة الزمانية والمكانية التي بين باشراحيل والعقاد ، فقد اتفق الشاعران وأبديا آراء متشـابهة عـن الحيـاة الدنيـا وكأنهمـا في ذلك يستقيان من نبع واحد .

ولا نستطيع أن ندعي أن للشاعر باشراحيل نظرة تشاؤمية ، لأن كل قصائده تقريبـاً تنتهـي بالدعـاء أو الابتهـال أو الرجـاء مـن الله سبحانه أن يخفف ما يعاني ويجد ، أو أن يزيل الهم والكرب . كمـا يقول في رثاء الأديب / حمد الجاسر في نهاية القصيدة : [1]

فاغفر له يا إله الكون في كرم

فـإننـــا وجميع الخلق خُطاءُ

وكذلك في قصيدة رثاء الشاعر / حسين سرحان : [2]

---

(١) قصيدة (هذا هو الحق) - قناديل الريح ، ص ٢٩٨ .

(٢) قصيدة (العمر اليتيم) - قناديل الريح ، ص ٤٢١ .

ندعـــــو لك ا لله الذي قد حف بالإحسان عبده

أما القصيدة التي يرثي فيها أباه ، فإنه يظهر الجلد والتصبر والعزاء ، بأسلوب الأديب الإسلامي الواثق .. ويقول في نهاية القصيدة :

لم تزدني الحياة غير يقين أن لله رجعتي وسكـوني

وهو بالخلق راحمٌ وكريم وهو مولاك بين دنيا ودين

ولو استعرضنا كل قصائد باشراحيل سنجد فيها هذه الخاصية فالحس الديني الإيماني - ولا نزكي أحداً على ا لله - مع عدم الاكتراث بهموم الدنيا وفتنها وزينتها بالإضافة إلى إحسان الظن بالناس كل ذلك ملامح واضحة لا تخطئها العين ، وهذا هو المدخل الطبيعي الذي يستطيع الدارس أوالقارئ أن يعبر من خلاله إلى آفاق وأعماق الشاعر المرهف (باشراحيل) إذا أراد أن يعرف اتجاهات الرثاء عنده ، فهو شاعر يقول صراحة أن أحزانه أكثر من أفراحه - وهكذا كل الشعراء الصادقين - وهو في ذلك يتفق مع الشاعر الذي قال (ولعله عباس العقاد) :

إن حزنا في ساعــة المـــوت   بأضعاف سرور في ساعة الميلاد

فهو ليس من أهل اللهو والعبث ، وإن تنــاثر مـن أعماقـه بعـض قصـائد الغـزل والشـوق والهيـام ، كمـا أنـه ليـس مـن أهـل الأرض والغفلة مهما كانت الخطى التي مشاها عندما كتبت عليه .

ولاستيضاح اتجاهات الرثاء عند باشراحيل لابد من تناول بعـض إبداعاتـه في هـذا الغـرض علـى سـبيل الاستشـهاد والاسـتنباط . والنموذج الأول الذي سنجوب في عرضاته هـو قصيـدة (لله درك ياعمر) التي كتبت في رثاء المغفور لـه بـإذن الله الشيـخ / عمـر بـن محمد بن سبيل (إمام المسجد الحرام : [1]

يستهل الشاعر مرثيته قائلاً :

لله ما أقسى الخـــــبر   اليــــوم ودعنــــا عمر

يا أيها الشيخ الإمــــام   وأيهـــا القلب النضــر

يبكيك من بالبيت طاف   وحج مكـــة واعتـــمــر

(١) من ديوان (وحشة الروح) ، ص ٣٤ .

فالشاعر يبدأ أول كلمة في القصيدة بسم الله (لله) وعنوان القصيدة مبدوء كذلك ، ونهاية القصيدة (يا رب) .. وقد وصلت الرسالة التي يريد الشاعر أن يبثها عبر قصيدته فالأحزان مهما كانت والمصائب مهما عظمت فإنها لا تطيح برزانة الرجل .. ومرارة الوداع وقسوة الخبر لا يخففهما إلا اللجوء إلى الله محتسبين خاصة في مثل هذه الأمور ، ويبدو مدى تأثر باشراحيل بما قاله عبيد بن الأبرص :

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

وتحليل القصيدة من حيث المفردات تكشف عن أمور كثيرة .. ففيها (القسوة - والبكاء - والحزن - والدموع - والمنية - والوداع) وهي مفردات لها وقعها عند الرثاء .. ولكن هناك مفردات أخرى وظفها الشاعر لخدمة أغراضه في هذا الحيز ، فالقصيدة فيها من (النضارة - الخير - حبات الندى - عين القمر - النسائم - السراج - السقى - العطر - المطر) كما نجد فيها

ذكـر للمكـان (مكـة) وذكـر للزمـان - والحركـة - والصــوت - والعطر - والضوء ..أي إن القصيدة لوحة متكاملة من الصور .

والبيان في أبيات القصيدة له مذاق خاص ، فالنسائم لها دمـوع والأسحار لها مُقل والقمر له عين والخير يبكي والسراج يقرأ ويرتـل والمنية تسعى . يقول باشراحيل :

دمع النسائم لـم يــزل	ينساب من مقل السحر
كبريق حبات النـــدى	أشرقت في عين القمـــر

ومن قبل البيتين في ترتيب الشاعر :

والخير أصدق من بكى	حزناً وأول من حضـــر
وسراجك الضاوى يشع	بما حفظت من الســـور

وقبل النهاية :

تسعى المنية نحونــــا	سعي القضاء أو القدر

وبين هذا وذاك فإن الابتهال والدعاء سمة مميزة في هذه القصيدة:

يا رب نحن إلى رضاك	ونيل عفـــوك نفتقـــر

فاغفر له يا سيـــــدي وارحمه أنت بـــه أبـــر
أنت الكريم وأنت من بيديك أقدار البشـــــر
يا رب نسألك الثبـات لــه وطيـب المستقـــر

والشاعر لا يكتفي بأنه تضـرع إلى ا لله ، ولكنـه يسـترحم بكـل أهل الطاعات الذين طافوا حُجاجاً أو معتمرين :

ودعاء من صلى الفروض الخمس ، والتمس الحجر

ومما سبق يتضح لنا أن اتجاهـات الرثـاء عنـد باشـراحيل ليسـت بكائيـات أو مـآثر جـامدة . ولكنهـا فرصـة للتـأكيد علـى الثوابـت الإيمانية والحث على الفضائل . وذكر المحاسن وتسجيل الخواطر كل هذا مع سرد آلامه الخاصة من فقد الحبيب الذي غاب .

ونظرة عابرة في قصيدة أخرى لباشراحيل أراها ضرورية لتثبيـت أركان هذه الرؤية . حتى وإن لم نلجأ إلى تحليلها كمـا حـدث مـن قبل .

والنموذج الثاني الذي أتناوله هو قصيدة (الفـراق المر) في رثـاء الشيخ العالم محمد بن عثيمين [1] .

عندما قرأت القصيدة للمرة الأولى - سرح بي الخيال بعيـداً إلى خير العصور ، وتذكرت قصة الصحابي الـذي سمـع الرسـول صلـى الله عليه وسلم وهو يدعو الله عند دفن أحد الصحابة . فقال ليتـني أنا الذي على النعش ، وذلك من طلاوة ما سمعه من المصطفى وهـو يترحم على الفقيد .

ولما قرأتها للمرة الثانية عند إعداد هـذه الدراسـة ، تمثلـت بيـت الشاعر مالك بن الريب حين قال :

تذكرت من يبكي علي فلم أجـد

سوى السيف والرمح الرديني باكيا

لأن العالم الجليل (بن عثيمين) كان موفور الحظ ، فجند الله لـه من يرثيه بما هو أهل له . وياليت شعري !! من سيرثينا غداً ؟

(١) من ديوان قناديل الريح : مجموعة (مرافئ الدمع) ، ص ٤٠٠ .

يقول باشراحيل في رثائه (لابن عثيمين) :

يا أيها الشيخ الذي يعتادنـــا   في كل عيد بالتقى يتبســـم

عيد الجنان هناك أعظم فرحة   للمؤمن الصادي لمن هو أعظم

وأيضاً يستغل باشراحيل السانحة ليؤكد على اهمية العلم وفضله وعلى قيمة التقوى في الدنيا والاخرة ، وفي ختام القصيدة يستودع الشاعر كل وجدانه عند الله سبحانه الذي لا تضيع ودائعه ..

هو خالق الكون العظيم وكلنا

رهن المنون ولن ترى من يسلم

والوقار عند باشراحيل يعد من أهم القيم التي يجب التمسك بها في كل الأحوال ، أو هو حجر الزاوية في العلاقات الإنسانية ، ولذلك فإنه لا يتوانى إطلاقاً في إبداء الإعجاب الفائق بمن يتصف بهذه الصفة السامية .

ففي رثائه للشاعر / حسين عرب في قصيدة بعنوان (على مثله دمع الرجال يسيل) يقول باشراحيل :

هو الصادق الأوفى الحفيظ لعهده

رفيع عن الـهـذر السقـيم أثيل [1]

فإذا ما اسـتعدنا مـن خـلال الشـعر علاقـة باشـراحيل بـالمرثى ، سنجد ذات المعاني مداولة بينهما في مراسلاتهم فهو أيضاً القائل من قبل في قصيدة كان قد أرسلها للشاعر / حسـين عـرب في حياتـه ، وكأنه استشعر ضرورة التأكيد على معاني الوفاء .. قال :

هو الزمان فلا تعجب لحالتـــه إذا تقلب في أعقـــــابه الترح

وحسـين عـرب الـذي يخاطبـه باشـراحيل بهـذه المداخــلات أو المساجلات القيمة هو صاحب القصة الشـهيرة (قصـة القـلس) الـتي تتجلى فيها الأسباب التي جعلت باشراحيل يهيم بحبه قلبـاً وقالبـاً .. فبعد أن اسـتعرض الشـاعر حسـين عـرب بعـض الأحـداث العربيـة الدامية وتوابعها في قصيدة طويلة نسبياً .. اختتمها بقوله :

أيها السامعون عفواً فما كنت لأشجيكم بما أشجاني

(١) ديوان وحشة الروح ، ص ٥٠ .

قد لواني القريب عن بهجة الحفل ولما عالجته أعياني

وبعد هذا الاعتذار البليغ الذي يوضح مدى شفافية شعراء الجزيرة العربية وحساسيتهم الزائدة نحو مشاعر الآخرين يصف الشاعر حسين عرب تلك الليلة التي جمعته مع أحبته في تهامة قائلاً:

ليلة من ثقافة وبيان وجمال وفرحة وأغان

لم أكن من حماتها غير أني كجواد يعدو لغير رهان

فإذا كانت هذه المشاعر الفياضة هي التي كانت تجمع بين حسين عرب وباشراحيل فقد وجب على باشراحيل أن يعزيه أحر العزاء محتسباً كل الخصال التي وجدها فيه عند من لا تضيع ودائعه . وكأنه يتخوف مما حذر منه من قبل الشاعر الفارسي (الطغرائي) حين قال لاميته الشهيرة

غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت

مسافة الخلف بين القول والعمل

وهذا يوضح أن اتجاهات الرثاء عند باشـراحيل تجـوب في آفـاق الأخلاق والمثل العليا سواء توجه بأشعاره تلقـاء نجـد أو تهامـة ، أو حلق بها في سماوات الحضارة العربية الإسلامية أينما حلت .

الرمزية في الرثاء

تجولت كثيرا بين قوافي باشراحيل ، ورافقته من خلال الكلمات المجنحة في شتى أغراضه الشعرية ، وتوقفت كثيراً عند قصائد الرثاء ، وشعرت بكل ما تألم به باشراحيل عندما فارقه أحبابه وذلك بسبب أسلوبه البديع الذي يشف عن حقيقة ما عاناه الشاعر لكل فقيد عزيز لديه .. ولا أقول إنني شاركته أحزانه ، ولكني أقول أحسست أنه قال ما وددت أن يقال في هؤلاء الرجال خاصة من أعرفهم .

أما المعاني والمثل والقيم التي افتقدها الشاعر ولو إلى حين ، فرثاها بشكل مباشر أو غير مباشر ، فهي دليل الإحساس المرهف الذي يتمتع به الشعراء المخلصون الغيورون ، وباشراحيل عندما يتعرض لهذه المسائل فإنه لا يسطحها ولا يضخمها ولكنه يبتغي بين ذلك سبيلا ، ويقنع القارئ أو المتلقي بوجهة نظره ، فهو يتحدث عن رهط من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجموعة (أقمار مكة) ليعيد إلى التداول تلك الصفات النبيلة التي كان يتحلى

بها الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، ويود لو توافرت كل الشمائل والخصال الحميدة في أبناء جيله.

أما بلاد الإسلام التي يرثيها باشراحيل مثل (القدس والعراق واليمن ولبنان) فإنها استكمال لأركان الرثاء عنده بعد أن رثى الزمان والإنسان والخصال ، حتى نفسه التي بين جنبيه لم تسلم من الرثاء كما في قصيدة (فرحة الرحيل) من ديوان قناديل الريح .

معنى ذلك أنني أمام ظاهرة شعرية تفاعلت مع الحياة في حقيقتها المجردة من كل أقنعة التزيين أو التزييف ، وتعاملت معها على هذا الأساس ، فلا عجب أن يرحل الغرام غير مأسوف عليه وهو الذي يحرص عليه كل الناس ولا عجب أيضاً من أن يكون للرحيل فرحة مع أنه هو عين الشقاء والعذاب في أعراف أهل الوصال ومريديه .

وقضية الموت تعتبر من أعقد المسائل التي شغلت بال الشعراء قديماً وحديثاً .. وإن كان باشراحيل يوصي ابنته بالتصبر ويقول لها :

لا تنــوحي بنيـــتي .. لا تنــوحي

جددي الذكر عن وفـاتي وبوحي

فهو في ذلك يتحدث كما لو فارق الحياة فعـلاً ، وكـان عبـاس العقاد يوصي محبيه وتلاميذه أيضاً بما يجب أن يفعلـوه ، ومـن أبياتـه الشهيرة في ذلك :

إذا شيعوني يوم تقضي منيـــــتي

وقالوا أراح الله ذاك المعــذبـــا

فلا تحملوني صامتين إلى الثــرى

فإني أخاف اللحد أن يتهيبــــا

وغنوا فإن الموت كأس شهيــــة

وما زال يحلو أن يغنى ويشربـــا

ولا تذكروني بالبكاء .. وإنـمـا

أعيدوا على سمعي القصيد فأطربا

ومن قبلهما كانت الأبيات التي تجاوزهـا الأدب الإسـلامي بعـد تحريم "شق الجيوب ولطم الخدود" حيث قال أحد الشعراء :

وإن مت فانعيني بـمـا أنا أهلـه

وشقي عليَّ الجيب يا ابنة مالك

ولكن شتان بين ما يدعو إليه باشراحيل وبين ذلك ، فهـو يـرى أن حياته للحق وإذا مات فللذكـر الطيـب ، وهـو في فلسـفته هـذه على عكس طرفة بن العبد البكري الذي جعل حياتـه للمجـون ولا شيء بعد الموت حين قال :

كريم يروي نفسه في حيــاتــه

ستعلم إن متنا غداً أينا الصـدى

يقول باشراحيل :

أنا إن عشت كان للحق عهـدي

وإذا مت عطـــــرتني صروحي

لست أرضى مجاهل السوء .. إنني

أعتلي الدهر عن غبار السفـــوح

وما يطرحه باشراحيل من خلال قصيدته (فرحة الرحيل) من تبريرات دعته إلى هذا الاتجاه .. فإنه يذكرنا بما قاله أبو الطيب المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا

ألا تفارقهم فالراحلون هم

فهو سعيد برحيله الذي هو في الحقيقة رحيلهم ، حيث فارقوا المعاني الجميلة التي يرجوها الشاعر فيمن حوله ، وما دامت المخازي والهموم والذهول هي البضاعة الرائجة في غياب الجمال والآمال والنقاء ، فإنه لم يعد أمامه إلا أن يقول :

دثريني حبيبة القلب إني

قد أرتني الأحداث كل قبيح

لم يعد وجهنا الجميل جميلاً

وصحيح الآمال غير صحيح

لم تزدني الحياة إلا ملال

فأريحي بنيتي واستريحي

وإذ يقول باشراحيل أنه فرح بالرحيل بسبب الصفات السيئة التي أصبحت ظاهرة مرحيله متخذاً من الحياة رمزاً لذلك فقد سبقه في نفس الدرب (الغرام) . وفي قصيدة (رحل الغرام) يتخذ الرمزية بعداً جديداً لتأتي الأبيات على لسان أنثى فاضلة زاهدة واثقة ، ربما تكون تجسيداً للكرامة المهانة أو الشجاعة الغائبة ، وإذا كانت الكرامة أو الشجاعة من أهم سمات العربي ، فقد جعل باشراحيل غراماً متبادلاً بينهما وبين الإنسان العربي ، فإذا ما اهتزت علاقاتهم الوشيجة وحل الجفاء محل الغرام ، واستسلم الإنسان ، فإن من حق الشجاعة أو الكرامة أن تتخذ لنفسها موقفاً وترثى ذلك الغرام الذي رحل كما يقول باشراحيل على لسانها :

دعني فما أنا من جراحك عاتبة

رحل الغرام و لم أعد بك راغبة

وربما يأتي أحد القراء فيجرد القصيدة من الرمزية ، ويأخذها على أنها حالة عاطفية بين رجل وامرأة ، ويرى أن باشراحيل عبر

عن وجهة نظر المرأة .. فقد ثارت أمور مشـابهة حينما كتب أبو فراس الحمداني رائيته الشهيرة وقال :

وفيت وفي بعض الوفاء مذلة
لفاتنة في الحي شيمتها الغدر
تسائلني من أنت وهي عليمة
وهل لشج مثلي على حاله نكر
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى
قتيلك .. قالت أيهم فهمو كثر

حيث اعتبر بعض المتلقين أن الفاتنة رمز للوطن .

وهذه هي ميزة الشعر ، يثير من الخيالات ما يوافق كل الأهواء ويجد كل ساع في عرصاته ما يوافقه ، "والشاعر ينام ملء جفونه عن شوارده" ، كما قال المتنبي من قبل ، ولك أن تسبح بخيالك كما تشاء وتفسر بما يحلو لك ما قاله باشراحيل في نهاية القصيدة :

مازال في وجهي الربيع ولم أزل
أحلى النساء ومن جنونك هاربه

إن لم أكن فجر ابتسامـــات المنى

أو كان حظي من زماني الكاسبـه

سأريـح تسهيد الجفـــون وأبتـن

كـــوخ الهدوء أعيش أجمل راهبـه

بين الحجاز والشام

حينما قرأت للشاعر بشار بن برد بيته الشهير :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة

والأذن تعشق قبل العين أحياناً

اعتبرت هذه المقولة من بنات الخيال التي تصدر عن الهائمين فقط .. وعندما قرأت للشاعر / باشراحيل قصيدة (منبر الشرق) التي يرثي فيها الشاعر الكبير / عمر أبو ريشه . تأكدت أن بشاراً لم يتجاوز ولم يبالغ ، ولكنه كان صادقاً ، فها قد عشقت (أبا ريشة) دون أن أراه من قبل وذلك من خلال ما قاله باشراحيل ، فتمنيت أني لو تواصلت مع الفقيد وعايشته ولمست فيه هذه الصفات النبيلة عن قرب وهو صاحب قطوف الشعر كما يناجيه باشراحيل :

أيها الشاعر المتوج بالشعر ومن شعره شذى وقطوف

وهذه القصيدة تحلق في أفق الحجاز ، تلك الآفاق التي لها مكانتها إذ تنزلت من خلالها كل معاني مكارم الأخلاق التي يبثها

باشراحيل عبر قصائده ، وتتجه شمالاً في ذات الدروب التي أظلت رحلة الصيف التي كانت تتحرك من الحجاز إلى الشام . إلا أن بضاعة باشراحيل ليست للتجارة التي تطعم من جوع ، ولكنها للحب والمودة ووصل ما أمر الله به أن يوصل ، وإذا كانت المسافة بين مكة (بلد الراثي) وسوريا (بلد المرثي) قد نعمت بهذا التواصل ، فإنني أضيف إليهما (وادي النيل) بالتجاوب .. ثم تتداخل المسافات ما بين المتلقين فتنصهر في بوتقة الأدب العربي وفق المنظور والتصور الإسلاميين ، وتتلاحم عبر القوافي لما فيه الخير للشعوب ثقافياً واجتماعياً .

وعمر أبو ريشه ، كان شاعراً يستحق الرثاء بكل هذه المعاني والأخيلة ، ولم يكن باشراحيل مجاملاً عندما سمى قصيدته بمنبر الشرق فإذا تتبعنا أثر رحيل أبو ريشه عن دنيانا في أعماق بعض الشعراء المعاصرين سنجد أيضاً مكانته في قلوب الجميع ، وكما يقول الشاعر السوري (ناصر الخوري) في رثاء أبو ريشه :[1]

(١) معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين – المجلد الخامس .

نوحي جفون الهوى واستنفري الوترا
مات الأمير وناي الشعر قد كسـرا

أغنى الزمان تضيء الدرب أحرفـه
فالشمس تحمل في أجفانها القمـرا

وهذا دليل على أن باشراحيل كان صادقاً في تعبيراته في رثاء أبو ريشه وبالتالي هو لم يتصنع الألفاظ والمعاني .

وعنوان القصيدة (منبر الشرق) فيه إيحاء ، المنبر عند المسلمين له مكانة مرموقة حيث يشع منه نور العلم ، والشرق يمثل بداية كل يوم جديد ومولد متجدد للشمس التي لا يفنيها الغروب ... وواضح أن الشاعر أراد أن يجمع بين هذين النيرين عندما أراد أن يتحدث عن (عمر أبو ريشه) وأدبه الذي تركه من بعده ، وسيرته التي يراها باشراحيل نموذجاً يحتذى به وكان يمكنه أن يكتفي بالعنوان في الاستدلال على ذلك ، ولكنه استرسل قائلاً :

أيها المبدع المحلق كالنسـر على الريح في القضاء يطوف

أيها المرتقي إلى سبل المجد　　　وللناس منك عقل حصيف

ويصرح بما خفى بين حروف العنوان ، من ذلك الضوء الذي ينبعث من منبره ليفتت الظلام :

أنت للعرب منبر يتضاوى　　　في دياجي الظلام مما يخيف

وباشراحيل كما عهدناه في كل قصائد الرثاء وغير الرثاء .. لا يحيد عن اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى بما يرجوه لنفسه ولغيره :

فلينلك الرحمن خير ثواب　　　وهو للناس غافر ورؤوف

وهو إذ يختتم قصيدته في رثاء (عمر أبو ريشه) بهذا البيت .. وكأنه يريد أن يزيل عن القراء بعض القلق الذي قد يساورهم بسبب البيت الأول حيث يقول :

حسبنا كلنا أسىً يا رفيق　　　وأنين الفراق داء مخيف

وفيما يتعلق بأسلوب باشراحيل في هذه القصيدة ، نجده يخاطب المرثي بأشكال متعددة ، فأحياناً وكأنه يناديه عبر الأثير بقوله : (أيها) ويكررها في أبيات أربعة غير متتابعة كقوله :

أيها الراحل الموسد بالحب　　　وفي روضك الزمان الوريف

أيها الشاعر المتوج بالشعر　　　ومن شعره شذى وقطوف

(وكان قد سبق أن خاطبه بقول : (أيها المبدع وأيها المرتقي) .

وهو في ذلك يتصوره ماثلاً أمامه بقيمه وشعره وإبداعاته ونجده يقول له :

أنت في الدهر صورة تتسامى　　　وصداك الشجي فينا أليف

مع أنه في بعض الأبيات يتحدث عنه بضمير الغائب وبفعل (كان) :

كان ملء العيون ينشد للحق　　　وفي راحتيه منه سيوف

كان في الجدب يستجيب إلى　　　الزهر ووجه الندى إليه شفوف

وقد يخاطبه بـ (كنت) :

كنت تمضي إلى الحياة بعقل　　　وهو فيك الحكيم والفيلسوف

وهذا التنوع في أسلوب المخاطبة يوحي أن باشراحيل لم يفتقد روح (عمر أبو ريشه) الإنسان الشاعر ، ولكنه فقد حضوره المكاني فقط .

وإذا نظرنا إلى مجمل القصيدة من خلال اتجاهات باشراحيل في الرثاء نجد أنها واضحة المضمون (فأنين الفراق) في البيت الأول (والراحل الموسد في منتصف القصيدة والجوانح الثكلى) في نهاياتها تجزم الغرض الرثاي للقصيدة ، والأغاريد والبلابل والروح والنسر المحلق والريح كلمات تدل على شاعرية المرثى ومكانته في فضاءات الأدب ، وكلمات : (التسامي والحكمة والفلسفة والارتقاء) تدل على مكانته بين الناس .

ومع أن القصيدة تتكون من إحدى وعشرين بيتاً ، فإن المعاني والصور والأخيلة التي بث من خلالها كثيرة ، تفي بمكانة الفقيد ومآثره في قلب الراثي ، ولذلك فقد استطاع باشراحيل أن يقنع المتلقي برسالته التي أراد أن يبلغها للمثقف العربي عن رواد الشعر في العصر الحديث .

وهذه الأبيات وهي تحلق من الحجاز إلى الشام ، فإنها تطيح بالحدود السياسية التي رسمها الاستعمار للتفريق بين أبناء الأمة الإسلامية في ثقافتها ، بل تبشر أن ما بذره الأعداء لم تنبت إلا طلع التحدي ، ولو أتت أكلها بعد حين ، وهذه الدراسة التي نصوغها ونحن على ضفاف نهر النيل دليل على الصدى الطيب الذي أحدثه الشعر والشاعر ونجاحه مع رفاقه الشعراء والأدباء في خلخلة الإقليمية التي يحاول ضعاف النفوس من فرضها على الواقع العربي وهم ينادون بقطع الصلة بين الماضي والحاضر تمهيداً لتفتيت الحاضر .

كما أن المؤرخين الذين سيأتون في أجيال لاحقة ويستعينون بالأدب في تأريخهم ، ستقر أعينهم عندما يرون مثل هذه القصائد التي تؤكد لهم مدى التواصل المكاني بين العرب في كل مكان والتواصل الزماني بين الأجيال المتعاقبة وارتباطهم بالنبع الصافي الذي بدأ منذ قرون بعيدة مع قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، وتكون المحصلة النهائية خير دافع للأجيال القادمة على

السير في نفس طريق المجد من خلال ما توارثوه من أدب ولغة وثقافة وأشكال تعبيرية وخصوصية أخلاقية وأوزان بيانية ، يتخطون بكل ذلك أعتاب المستقبل ، فيذكرون أجدادهم (الذين هم نحن) بكل خير .

الأغراض المتنوعة وظلال الرثاء

معاني الرثاء في شعر باشراحيل متعددة ، قد تـأتي مباشـرة كمـا اعتاده الناس وقد تأتي في ثنايا وجدانياته وهو يسـتدعى مـن ذاكـرة التاريخ بعض المـآثر أو أصحابهـا للاسـتدلال أو الاستشـهاد بهـا في ظروف معينة ، وربما يستصرخ بهم ليثير حمية محبيهم وعشاقهم .

ففي قصيدة (شوقي أمير الشعراء) من ديوان (معذبتي) ، نجـد أن باشراحيل يناجي شوقي قائلاً :

أدعوك في زمن تنـاقض أمــــره

وسطا على الشعر العظيـم البـاني

الشعر في أيامنـــــا في مـحنـــــة

من هجمـة الغربـاء والفربـــــان

أدعوك ، أدعو الشعر يثري عمرنا

أدعو أمير القــول والـتـبـيـــــان

وكأن باشراحيل تلفت حوله فلم يجد من رفاقه ما يشـفي غليلـه ، أو رآها أقل مما يتوقعه في مواجهة الأدعياء والمتطفلين علـى موائـد الشـعر تحـت مسـميات متنوعـة ، وفي مثـل هـذه الظـروف تكـون الساحة في أشد الحاجة إلى العبقريات الأدبية التي لا يشق لها غبـار ، وأمير الشعراء بما تركه لنا من شـعر خـالد هـو البـدر الـذي يفتقـده باشراحيل في الليلة الظلماء ، فيستدعيه بكـل معـاني الحـب والوفـاء والإجلال قائلاً :

أدعوك حباً يا حبيب تراثنا يا خالد الإلهـام والأوزانِ

ويبرر باشراحيل سبب هذا التلاحم بينه وبين شوقي :

يا شاعراً ملأ الوجود قريضه

بالحب والإلهـام والإيمـان

أثرى الحياة فأشرقت أيامـه

نحو الدنـا تزهو بكل زمـان

وهذا هو عين الرثاء ، وإن لم يكن في شخص فإنـه في معنـى أو قيمة أو أثر ، وكذلك ربما يكون المرثي زماناً أو مكاناً :

وهذا الاتجاه في شعر باشراحيل علامة أو سمة من سمات القريض عنده ، وهذا هو ما أشرت إليه من قبل عن تداخل الأغراض الشعرية وتمازجها وتلاحمها حسب ما تقتضيه المواقف ، وإن كان "شوقي" أمير البيان ، فإن لكل جانب من جوانب الحياة أميره ورجاله ، والتاريخ مليء بأسماء العظماء في كل مجال ، والخصال الحميدة التي يحن إليها باشراحيل لا يخلو منها زمان ، ولذلك نجده يروح ويغدو مستعرضاً الأيام والليالي بل الشهور والسنين ، وكأنه نحلة تأكل من كل الثمرات سالكة سبل ربها ذللاً ، وفي آخر أسفاره يقدم لنا عصارة قراءاته وجولاته في أعماق التاريخ الأدبي الإسلامي ، فلا يسميها "قصائد رثاء" ولكنه يسميها إما بأسماء أبطالها أو بمآثرهم .

ففي قصيدة عنوانها "حمزة بن عبد المطلب" من ديوان "وحشة الروح" يتلمس باشراحيل مواطن الضعف الذي أصاب الأمة الإسلامية ويستدعي تلك المعاني التي غابت بغياب أصحابها ، وأسد الله "حمزة" كما يقول عنه :

هو ذلك الشهم الشجاع   وذلك القلب المنزه
كم قد سقى "أحداً" دم   الباغي ، وبات الحق رمزه

فهل استشعر باشراحيل بحسه الشاعري المرهف غياب الشهامة والشجاعة ونزاهة القلب ؟ أم أنه لاحظ استشراء الغدر والخيانة عند خصوم الإسلام ولم يجد من يصدهم بما هم أهل له فتذكر استشهاد حمزة بضربة غادرة وهذه بتلك :

يا رمح وحشي الذي   غرز الضغينة شر غرزه

وهذه الضغينة التي غرزت في كبد الأمة الإسلامية ، توالت أصداؤها عبر الزمان على مر العصور وفي أماكن متعددة في بلاد الإسلام فهذه "جنين" في فلسطين السليبة تعاني ، والمسلمون في سبات عميق ، وفي قصيدة "جنين يا جنين" يقول باشراحيل :

سُحِقت والرؤى تراك
لكن لا يد تعين
وبين غمضة الردى
لا زلت تبسمين

إلى أن يقول :

الفقد والحنين

وقبلة تهان دون رادع ودين

وكلنا نخاف ، كلنا بماله وعمره ضنين

فإذا وضعنا هذه الأبيات بجوار أبيات قصيدة "حمزة" التي يقول فيها :

تا لله ما خشى الخطوب   إذا ادلهمت لم تهزه

قلب البسالة والندى   بطل يخاف الكفر لمزه

وتداولنا مضمون القصيدتين معاً ، يتضح لنا نظرة باشراحيل الفلسفية عندما يتناول المحن التي تصيب المسلمين ، ويحاول أن يستفز مشاعرهم بشتى الطرق سواء كان ذلك بالترغيب أو الترهيب .

وفي قصيدة (صوت الجزائر) من ديوان (وحشة الروح) يئن باشراحيل من حال العرب والعروبة ويقول عن هذه الأمة :

تظـل تحتقـــب الآلام في وهـن

والخوف والذل والأوهام تجنيهـــا

هذي العروبة والأدواء تصرعهـــا

عز الشفاء فقل لي من يداويهـا ؟

يا ألف مليون عقل ، كم يؤرقنـا

أن العروبة نامت عن دواهيهـــا

وهو بذلك يرثي حـال الأمـة العربيـة في أسـلوب غـير مباشـر ، ويغلف الرثاء في أشكال متعددة ، كمّا فعل نفس الشيء في قصيّدة (مصر مبارك) التي يقول فيها :

أين السلام ، تبددت أحلامه ؟

والوقت أظلم في عيون كسيـح

وشعوبنا تقتات من هول الردى

وغـــلالهـا نهب لظلم كشيـح

وفي قصيدة (النخلة والوطن) يقول عن الوطن :

يعطي العطايا وليل الغدر محتشد
بخبث مرتزقٍ أو حقد منكــــود
يا موطني نامت الأيام من زمــن
وقد صحونا على غدر وتبديــد

وكل هذه الرثائيات في قصائده المتعددة الأغـراض ، مـا هـي إلا شحذ للهمم ، وكل هـذه القصـائد تنتهـي ببـث الأمـل في النفـوس وتذكير الناس بان الله هو الملجأ الوحيد الذي نستلهم منـه أسلوب الخروج مما نعاني .

ونفـس الكـلام ينطبـق علـى قصـائد باشــراحيل عــن جغرافيــا المسلمين والعرب ، فالقدس والبوسنة والعراق واليمن ولبنان وصـبرا وشاتيلا كلها أماكن لها وقع وصدى في نفس الشاعر .. مثال ذلـك قصيدة (رصاصة من فلسطين) من ديوان النبع الظـامئ والـتي يقـول فيها :

فلسطيني ونار الثـــأر — تصرخ في شـــراييني
أنام على لظى النيران — أسقيهـــــا وتسقيني

لقد فجــــرت قنبلتي	وقـد جردت سكـيني
لأن قضيتي جـــــرح	بأعماقي ينـــــــاديني

وهذه الصورة القاتمة للواقع العربي يقلق باشراحيل فيسافر بخياله إلى أغوار الماضي ويستدعي من الذكريات ما يهون عليه من الأمر .

ومن قصيدة (صور قديمة للعالم العربي) من ديوان الخوف :

أريني لوحة أخــــــرى	تصور دولتي الكـــبرى
من الـمــدن التي أودت	وأضحى فجرها ذكرى

أمــا مــا دفــع بباشــراحيل إلى الاســتنجاد بالمــاضي بتاريخـــه وجغرافيته ، أن الأمور صــارت فـوق طاقـة النفـس البشـرية ، وهـو يطالب "منازل الوحي" أن تشاركه في رثاء جزء عزيز من الوطن .. فيقول في قضيت (لبنان) ديوان (النبع الظامئ) :

منازل الوحي إرثي اليوم لبنانـــا

واستمطري الصبر من عينيك ريانا

مالت عليه الأعادي في شراستهـــا

وقد أحالت عروس الشرق بركانا

وهذا المـآل لم يكـن الوصـول إليـه (بيـده) ولكـن (بيـد عمـرو) عكس ما يقول المثل العربي ، وتتـوالى أبيـات القصيـدة علـى نفـس المنوال :-

ماذا على الشرق ، نـــيران مكثفـــة

قد استباح بهـــا الأعـــداء دنيـــانـــا

يستنجد العدل قلب بات منفطـــرا

مـمـــا اعتراه فمن يصغي له الآنـــا

والغرب غـــاف وأمريكـــا مؤيدة

والروس يحصون إن أحصوا ضحايانا

أما هذه الصورة القاتمة للواقع فلن تبعث في نفوسنا اليـأس الـذي يرفضه ديننا الحنيف ، ولكن النهاية كما في آخر القصيدة :

فلا تهون ولا تخبو عزائمنـــا

ولا يكون لغير الحق .. نجوانا

فالحق سبحانه وتعالى هو الملاذ ، وإذا لم نرع الحق بجلاله وصفاته فإن العاقبة سيئة وهذا ما ينفيه باشراحيل .

وإذا كانت قصيدة (صبرا وشاتيلا) في ديوان النبع الظامئ نهايتها :

ربما عادت لنا أمجادنا ذات يوم نتسامى .. ربما

ومن المعروف أن كلمة (ربما) تفيد الاحتمال الضعيف أو تقليل احتمالات الحدوث ، على العكس من كلمتي "لعل وعسى" فإن قصيدة (نكبة اليمن) في نفس الديوان تجبر تلك الآلام التي خلفتها أحداث صبرا وشاتيلا وألقت بظلالها في نهاية القصيدة ، وتحكمت في الأسلوب الشعري عند تناول الحدث ، فنهايتها تنسجم مع التبعات التي استجدت مع الأحداث ، وهو يقول فيها :

فالمؤمنون رداء الحق يجمعهم

وا لله مولى من اختار الهدى سندا

سبحانه ا لله فوق العرش عزته

وهو الذي خلق الأكوان منفرداً

وباشراحيل يؤرقه حال التفرق والتشرذم الذي يهيم فيه الأمة العربية فيتصور أن الزمان عاد القهقرى ، فيستل قلمه ليقاوم ذلك الاعوجاج بأسلوبه الخاص ، ويكتب قصيدة (ظلال الأمس) من ديوان الخوف ، ويصب فيها كلمات قاسية جداً ، منها (الزيف – وهج الغبار – الظلام – القهر – اللظى – الكي – الوهن – الريب – الإزهاق – الأعاصير – الأسى – الخيانة – التعاسة – الموت) وهكذا فإن القاموس اللغوي لهذه القصيدة توحي بمدى معاناة الشاعر وهو ينسج مشاعره ويخطها بين القوافي والأوزان ، وعلى غير عادته ، يختتم باشراحيل هذه القصيدة بقوله :

مرحى زمان الخـــالدين بزيفهم

مرحى زمان الكبر – عاد أبو لهب

وقد وصل إلى هذه النهاية بعد أن تراءى له أن " الصدق مات مجندلاً بين النصب" كما يقول هو في شطر البيت قبل الأخير .

وأنا أرى أن عودة أبي لهب معناه إعادة الأمور إلى المداولة مرة أخرى بين الحق والباطل . وكما انهزم أبا لهب فإن عودته أيضاً

مصيرها الانحدار . وإن لم يقل باشراحيل ذلك صراحة ، فإن البنـاء الشعري للقصيدة يوحي بذلك ، فبداية القصيدة :

زيف أطل من الزوابع واقترب

متسربلاً بالحلم في أوج النّوب

فالأمر كله زيف في زيف . والزوابـع مرحلة عـابرة . وفي موضع آخر من القصيدة يقول :

هذي بقايا الصيف جاثمـــة اللظى

تكوي ، وهذا الوهن في غصبة التعب

فالمفاجأة عبارة عن "بقايـا صيـف" علـى وشـك التلاشـي . أمـا باشراحيل بشخصه فإنه في وسط هذه الدوامة كما يصف نفسه :

أمسكت في يمناي ناقوس الرضـــــا

وغرست في صدري الجواهر والذهب

ولا أدري لماذا غرس الجواهر والذهب في صـدره ثم لم يتقلدهـا ، وهو القائل في قصيدة (البحث الأخير) من ديوان قناديل الريح :

نستعلي بالدين الأسمى   ونكون على الباغي أمة

وربما هي إشارة إلى أن (أبا لهب) الذي عاد ، كانت نهايته استعلاء الدين الأسمى ، ولذلك فإنه يخاطب أمته بنفس أبية وهمة عالية ويقول لها في قصيدة (أمتي معي) :

قومي أشعلي الليل بالأضواء وانتقدي
يا أمتي واسحقي ظلم الطغـــاة معي

وأياً كانت الأمور أو النتائج في الحياة فإنها سجال ، يقول في قصيدة (حمى جازان) من ديوان قناديل الريح :

هي النوائب أقـــدار مقـــدرة
يـــوم يسر ويوم بين أحـــزان
يا رحمة من لدى الباري نؤملهـــا
وفضله ذائع في الإنس والجـــان
يا رب رحماك من خطب يداهمنا
واسبغ علينـــا بإكـــرام وغفـــران

شخصيات الشاعر في الرثاء

من أهم الجماليات التي تميز بعض الأدباء والشعراء التزامهم بالموروث الثقافي والتأثر به والتفاعل معه ، فإذا تجاوب الشاعر مع موروثه الديني بالذات وهو ينسج أشعاره وقوافيه فإنه لا يلتفت كثيراً إلى ما حوله ومن حوله إلا بالقدر الذي ينسجم مع دواخله ومكنوناته . وهذا يأخذنا إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : "المرء على دين خليله . فلينظر أحدكم من يخالل" والحكمة العربية التي تقول (قل لي من تصاحب؟ أقل لك من أنت) وعلى هذا فيمكننا الاستدلال بالرفيق على رفيقه . فإذا كان القارئ يعرف باشراحيل الذي يعيش بين ظهرانينا فمن خلاله يستطيع التعرف على من رثاهم بشعره . وإذا كان يعرف سيرة من رثاهم باشراحيل فسيعرف شخصية الراثي من خلالهم .

ويلحظ المتتبع لشعر باشراحيل الرثائي في مجموعته "مرافئ الدمع" أنه تعرض لقامات كبيرة كان لها دور عظيم دينياً وأدبياً

واجتماعياً ، ومن هؤلاء الأعلام الأديب الكبير والعالم الموسوعي الفريق يحيى المعلمي ، وعلامة الجزيرة الراحل حمد الجاسر ، وشيخ الإسلام محمد بن عثيمين ، وفقيه العصر سماحة الشيخ الراحل ابن باز ، والأديب عبد القدوس الأنصاري ، والكاتب الإسلامي أحمد محمد جمال ، والشاعران حسين سرحان ، وحسين عرب ، والشاعر السوري عمر أبو ريشة ، والكاتب محمد أسعد ، والفنان السعودي طلال المداح ، بالإضافة إلى بعض المقربين إليه مثل عباس عجلان ، وعبد الله الحمدان ، ومعتز فاروق ، وكذلك فإن أولى الناس به وباهتماماته كان لهم نصيب من قصائده "والده في قصيدتين ، وعمته في قصيدة" .

ونستطيع أن نؤكد أن باشراحيل أخلص في قصائده هذه، لرموز فكرية ودينية وأدبية ، أجمعت الأمة على عظمة ما قدمته من آراء وأفكار وأشعار ، وفي إذكاء جذوة الصحوة في أركان المجتمع العربي الإسلامي ، بكتاباتها الرصينة ، وإخلاصها في علاج مشكلات الأمة ، إن شعرا وإن نثرا أو حتى بالمقالات الاجتماعية

أو الخطب المنبرية ، أو الدروس المسجدية . ومن هنا كان باشراحيل مخلصا لأبعد حد في رثائه لهذه الشموس النيرات في سماء العرب في العصر الحديث، وإلا ... فإننا لم نره – مثلا – يرثى أصحاب الجاه والسلطان والثراء لماذا ؟ لأنه كان صادقا في قصيده الرثائي لشخصيات بارزة استحقت كلمة الرثاء في وقت عز فيه الرائي الصادق ، والصديق النبيل !! وكأنه أراد أن ينأى بنفسه عن الشبهات التي تلحق بمن يرثون القادة والحكام !!.

ففي قصيدته "طبت وطبت" في رحيل الأستاذ الأديب المعلمى تبدى علائم وأمارات الموت واضحة العيان في خيال الشاعر، لأنه الحقيقة الكبرى في دنيا الناس والنجاة منه ليست لأحد :

كلنا إن تقارب الموت خاضر

من يرد القضاء منه ذا يكابر

قد ترجلت والأزاهر ثكلى

أنت أسقيتها بدمع المحاجر

وهو في رثائه ليحيى المعلمي ، لا يتحدث عنـه كشـاعر وأديـب ومـؤرخ ولغـوي ، لأن فاجعـة المنـون سـلبت مـن باشـراحيل كـل تفـاصيل حيـاة الراحـل الكريـم ، - ذلـك العلـم الـذي لا ينكـر - وجعلته يهيم في طريق الموت واصفا وشارحا وراثيا، حيـث لا تنفـع إلا الكلمة الصادقة في هذا المخلص الذي أدرك فيه الشـاعر أن كـل نعيم في الحياة إلى زوال ، وأن عزاءه هو الدعاء بالمغفرة لـه في هـذا المقام ، وليس الحديث عن مناقبه أو عن حياته :

جئت أرثيك والدعاء عـــزائي

إن رب الأنـــــام للعبد غافـــر

ما نعيم الحياة غير خيـــــــال

ونعيم الجنــــان أعلى الذخـــائر

فاغترف من مناهل الرب فضلا

وهو بالفضل للخـــلائق جـــابر

جئت أرثيك والمنـــــايا طريق

وخطانا على الحيــــــاة معـــابر

ضمخ الله بالرياحين وجهـــا

وسقاك الحيا من الخـير مـــاطر

ويرى باشراحيل أن المعلمي مل الحياة السقيمة ، وتمنى الفردوس الأعلى ، لذلك كان كالطير المسافر ، وكذلك أراد الشاعر في رثائه أن يكون مثل البرقيات المستعجلة ، والتعازي الحارة المخلصـة ، بـلا رتوش أو أقنعة مزيفة :

يا ليحي تجـــــاذبته الشـــواني

قبل أن نلتقي كطير مســـــافر

هجر الدوح واغتراب الليـــالي

مل من سطوة الحياة مهـــــاجر

فارشف النور من رحيق الأماني

طبت روحا وطبت ميتا وحاضر

وارتشاف النور من رحيق الأماني صـورة شـعرية بديعـة توضـح مدى ارتباط الشاعر بالمعاني الإيمانية . التي يراها في المرثى ... كمـا

توضح قوة تأثر باشراحيل بالقناعات التي عاش لها وبها المرحوم بإذن الله (يحيى المعلمي) . وكيف كان قدوة لمن معه ومن يأتي بعده .

أما قصيدته "هذا هو الحق" في رثاء الأديب العلامة حمد الجاسر ، فهي تنضح بمكانة الرجل العلمية ، وأخلاقه السمحة، فهو صاحب الفكر المحلق الوحيد الذي تشرئب إليه النفوس والأفئدة :-

يا ساكنا في جفون الدهر ما غمضت
عين من الدمع تهمي وهي نجلاء

خيولنا في رحاب الفكر جاثمة
وخيل فكرك تجري وهي خرساء

مضى الأديب ولم تمض خلائقه
تعيش وهى أناشيد وأصداء

قلب على الطيب أغوتنا محبته
وإنها لكريم المطمع آلاء

ثم يتحدث الشاعر بعد ذلك ... عن المباهج التي يلاقيها حمد الجاسر في جنات الخلد والنعيم ، حيث لا عين رأت، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ومن البديهي أن لا أحداً يزكي أحدا على الله، ولكنه إحسان الظن الذي أمرنا به الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في قوله (إذا رأيتم الرجل يرتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان) – يقول باشراحيل – :

يا راحلا عن ظلام الأرض في ملل

كيف الضياء وكيف الظل والماء

وكيف جنات عدن في مباهجها

وأنت في رحمة الديان قراء

هناك ما لا رأت عين ولا خطرت

على القلوب عيون وهي حوراء

فانهل من الصفو كاسات معتقة

ألوانها من رحيق الشهد صفراء

وعـد الإلـه ووعد الله ينجـزه

للصـادقين فـلا ضيـم ولا داء

فاغنم حظوظك أنعـاما ومكرمـة

فقـد وفيـت وما أغرتك أشيـاء

فاغفـر له يا إله الكـون في كـرم

فـإننـا وجميـع الخلـق خطـاء

وفـى القصيدتـين السـابقتين يتبـين لنـا مـدى عاطفـة باشـراحيل الفـوارة بحـب أهـل العلـم والأدب ، والصادقـة إلى أبعـد مـدى ، والألفاظ التي تلائم جو الرثاء ، وجلال الحدث ، ومكانة الراحلين ، فضـلا عـن الصـور الفنيـة المعبرة عـن علـم وقيمـة هـؤلاء كقولـه "فاغترف من مناهل الرب فضلا" ، وهي صـورة جامعـة لما ينتظره من الثواب العميم والخير الجزيل، وعليـه في الجنـات أن يغـترف مـن أماكن وموارد ومنـاهل وفيوضـات الرحمـن سبحانه وتعـالى ، فهـو الجدير بهذه المكرمات الربانية . وفى قوله :

ضمخ ا لله بالرياحين وجهـــــا

وسقاك الحيا من الخير ماطـــــر

تخيل الرياحين وهي تعتلي وجه المعلمـي في رحـاب ا لله ، داعيـا مولاه أن يسقيه من عطائه الجزيل وخيراته الماطرة .

كذلـك حـال باشـراحيل في صدقـه الإنسـاني مـع قصيـدة رثـاء العلامة حمد الجاسر ، تفوح فيها روائح الإخلاص والمحبة والصدق ، والتحليق الفـني في دوحـة علامـة الجزيـرة . وتبـدو تصـاويره الفنيـة أقرب إلى اللوحة الفنية المرسومة بريشة فنان ماهر ، مثال ذلك قـول باشراحيل :

يا ساكنا في جفون الدهر ما غمضت

عين من الدمع تهمي وهي نجـــــلاء

عندما جعله الشاعر ساكنا في جفون الزمـن ، وأن كـل العيـون البشرية تبكي عليه وتنـوح مـن أجـل فراقـه !! وهـي صـورة بديعـة تتضمن معاني جمة تؤكد على مكانة هذا الرجل الموسوعي .

كذلك أبدع خيال باشراحيل في قوله عن حمد الجاسر:

خيولنا في رحاب الفكر جـــاثمة

وخيل فكرك تجري وهي خرساء .

فأفكارنا نحن بلا خيول متحركـة ؛ لأنهـا جاثمـة علـى الأرض ، أما خيل فكر حمد الجاسـر فهـي راكضـة ، متحركـة ، وراء المعرفـة والعلم والريادة في شتى مجالات الحياة .

وفى فراق الشيخ محمد بـن عثيمـي ن، أبـدع الشـاعر عبـد ا لله باشراحيل فريدته "الفراق المر" متوجعاً ، شاكيا ، باكيا ، مسـتصعباً آلام الفراق ، ولوعة الرحيل :-

يا للفراق بكتك عينٌ أم فمُ　　وبكاكَ في كل البلاد المسـلم

ما أصعب الفقد الذي ينتابنا　　والموت حق والقضاء محكم

ولأن الشيخ كان بطلعتـه البهيـة يعتـاد المسـلمين في كـل عيـد ، ويطل عليهم بإشراقته السـاحرة ، فإنـه الآن اختـار طريـق الجنـان ، الذي هو أعظم فرحة للمؤمن الظمآن لنعيم مولاه:

يا أيها الشيخ الذي يعتادنـــا

في كل عيـــد بالتقى يتبســـم

عيد الجنان هناك أعظم فرحة

للمؤمن الصادي لمن هو أعظم

ويرى باشراحيل أن ابن عثيمين يتسربل في النعيم - بإذن الله - ويشرب رحيق المسك ؛ لأنه عاشق البلد الحرام، وهذا هو جزاء العلماء العاملين :

عِمْ يا محمدُ بالنعـــيم وبالعـــلى

واشربْ رحيق المسكِ وهـو مختم

وانعم بأُخراك البهيجة باسمـــــا

في روضة من حسنهـــا تتكلـــم

يـــا عـــاشق البلد الحرام وفضله

ها قد ثويت به وطـــاب المقـدم

هذا جـــزاء العـــاملين بعلمهم

هذا الفلاح قد اجتبـــاك المنعـــم

فالثم ضيـــاء الحمد في جنـــــاته

وانهل من اللــذات مــا لا تعــلمُ

كوكب العلم

علامة الحجاز وشيخ الإسلام الشيخ عبـد العزيـز بـن بـاز رحمـه الله ، صـاحب البـــاع الطويلــة في الدعــوة وفي العنايــة بــالحديث وبالجرح والتعديل ، الذي لم يمت ، كما يقول باشراحيل هــو بطـل هذه القصيدة وصاحبها ؛ لأن ذكراه عاطرة على مر الأيام ، وفتاويه وكتاباته ، يتداولها الناس ، ويطالعونهـا عـن حـب وفهـم . وعندمـا جاءه نداء ربه لباه على الفور ، في فرحـة وعجلـة وكأنـه في عـرس كبير يزفه فيه محبوه ومشيعوه إلى مستقره في مكة المكرمة :-

لا لم تمت فيك ذكرانا إلى الأبـد

يا كوكب العلم بين المتن والسند

لبيت حقا نداء الحق في عجــــل

بفرحة من شغاف القلب للأحـد

وقد تخيرت في أم القـــرى نزلا

فانعــم بهــا جيرة للبيت والبلـد

يا أيهــا الشــيخ أقبــال وأفئـدة

جاءت تزفك أنفاســا بلا عدد

هذي غراسك ، أحبــاب مشيعة

وأنت بالطهــر والأوراد والـبرد

وينتقل باشـراحيل إلى سـرد تفـاصيل حيـاة الشـيخ ، ومواقفـه ، عندما كان – يرحمـه الله– يصحـب الأخيـار والصـالحين ، ويوجـه أنظارهم إلى عمل الخيرات ؛ لأنه كان في أعماق ضمائر أحبابه يحيا بعلمه ، ويحييهم بدروسه وتقواه :

وكنت تصطحب الأخيار في كرم

وكم تحث رجــال الخير بالمــدد

لكم صحبناك عمرا في ضمائرنـــا

وقد حفظنـــاك حتى آخــر الأمد

يا من بذلت من المعروف أثمنه

وكنت تخفيه عن أهل وعن ولد

ومن شدة حب الناس للشيخ ابن باز . أصبح الجميع ساهرين؛ لبكاهم عليه ، حتى إن الغد تأثر به فشايعهم في بكاه :-

يا أيها الشيخ والأحباب ساهرة

تبكي الرحيل ، ويبكي للفراق غدي

فقد يهون وللأيام تعزية

لكن فقدك قد أعيا على الجلد

أمطرت بالعطف تسقي جدب أنفسنا

وكنت بالعلم ترياقا لكل صد

طبع القرى فيك إحسان وتأسية

للمعدمين تداوي قلة المدد

وكنت للحق صوتا غير محتجب

تذود بالشرع عن جهل وعن فند

وها هو ذا باشراحيل يصور الشيخ وهو يرفع راية الحق عالية مدوية بعيدة عن الزيف والأوهام ، وهو كذلك عازف عن أهواء ومطالب النفس الأرضية ، وهو أيضا في جهاده :

مجاهد في سبيل الحق يرفعه
حب الإله عن الأوهام والنكد
وعازف عن بريق الأرض يطلبه
مجاهد لنداء الحق في جلد

ولأن الشيخ مضى إلى رضوان الله ، وهو لا يعرف ماذا أصاب المسلمين من بعده ... خاطبه باشراحيل في نداء يندي بالخجل ، بعد ما دهمتنا طيور الأعادي الضعيفة ، وتذيقنا الموت ألوانا من العذاب والضنك والشتات :-

أعداؤنا من بغاث الطير تمطرنا
بوابل من رماح الحقد والحسد
تذيقنا الموت مما ضجت جوانحنا
وكم شكى الصبر فينا حرقة الجسد

يا ألف مليون والإســـلام يجمعنـا

كيف الشتات ونار الثـأر في الكبد

كيف الخلاص ودرب الحق تخذلـه

عصـــابة من شرار الخلق بالرصد

يا أيهـــا الشيخ فينا منك تذكـرة

ترودنـــا كلما ضقنـا من الكمد

فذكرى الشيخ ، دائما وأبدا ، حصن منيعة ضد الترهـات والأباطيل والأراجيف . وهو القابع في رحاب الخلد حيـث الأطيـار المحلقة ، التي يشجيه تسبيحها :-

سر للجنان رحاب الخلد وارفـــة

وانعم برحمة رب الخلق للأبـــــد

تطوف عندك أطيـــار محلقـــة

يشجيك تسبيحها في صوتها الغرد

الله أكبر يا طلال

معزوفة موسيقية حالمة، تتراقص فيها الكلمات بصدق لا جدال فيه، وتتماوج عاطفته الرثائية في بكاء الفنان طلال مدَّاح، ذلك المطرب الحسَّاس الذي أبكى مشاعر الناس بفنه الصادق :-

الله أكبرُ يا طـــلالْ
أبكيت أفئدةَ الرجـالْ
ووقفتَ تبســم للرؤى
وكأن بسمتك ارتحـالْ
وكأن آخــــرةَ الخُطَىْ
عُمْرٌ تثاءب ثم مـــال

وتبدو كلمات باشراحيل رقيقة إلى أبعد غايـة ، تلمس شغاف القلب ، وموطن الشعور من أول وهلة ، لأنه عبر بتلقائية عـن حبه لطلال ولفنه العذب ، في هذه المرثية الجميلة .

الفراق الصعب

ويرثى شاعرنا صديقه الناقد الدكتور عباس عجلان ، الذي كان آية في الأخلاق الحميدة ، وغزارة العلم ، ونقداته الأدبية الصائبة ، التي أطرت للساحة الأدبية طريقها وفق ضوابط العلم ، ولذلك خاض معارك نقدية طائلة، فما وهن ولا استكان لما أصابه :-

(عباسُ)، وانداح شعري في خلائقه
واقتدَّ في سامق العلياء بُنيانهُ
(عباسُ)، يا موئلاً للفكر قد نضجتْ
به العلوم وما أعياه تبيانهُ
(عباسُ)، يا فرحة بالأمس عاطرة
مرت سراعا ويبقى منك تحنان
لقد غرست غصون الحب مورومة
وكم رماك من الحساد بهتان

مـا رق خـــافقهم يومـا على ألـم

من جانحيـــك وقد أغراك ســـلوان

وكل شـــلو على آثـار ك ارتفعت

به الـمـراتب يعلـو وهـو جـذلانُ

الحـــاقدون وقـد لانت مـلامسهـم

وكلهم في ثيـــاب الـغـدر ثعبـانُ

صحبت فيـــك مســراتي وأغبيتى

ونحـن في مـلتـقى الأفـلاك جيرانُ

ويدعوه باشراحيل إلى الخلـود ، حيـث يسافر الشـعر في بهجـة معـه ، والأحبـاب والخـلان ، ليـترك علـى الأرض الأشـباح وبقايـا الشعراء :-

إلى الخلود ، ويسرى الشعر في شغف

وســـافر الشوق تستدنيه أشجـــان

إلى الخلود، وكل الصحب في وجـل

وحولك اليوم أحبــاب وخـــلان

إلى الخلود، ضحوك الثغر ليس يرى

سوى المناكيد أشباح وغربان

سر حيث شئت طليقا عند بارئنا

ظل الفراديس في مثواك فينان

وقلب الطرف ألوانا على فنن

من الجنان بها روح وريحان

ونلحظ مدى حنين باشراحيل إلى صحبة صديقيه عباس عجلان سواء في الدنيا أم في الآخرة ، وكأنهما صنوان عاشا على حب الأدب الأصيل ، والشعر القويم ، وهكذا كانت نفس عجلان ، في ودها وأدبها ، وهكذا كانت – وما تزال – نفس وروح باشراحيل الشاعرة .

فداحة العمر اليتيم !!!

وهنا تتجلى براعة باشراحيل الموسيقية العالية ، وقوة جرسه الصادح بالنعم في رثاء الشاعر الكبير حسين سرحان ، عندما تناغمت ألفاظه مع المضمون والعاطفة :–

يا شاعر الوقت الجحـو   د وقد رعى بالحق عهـده
جئناك لم نلق المكـــا   ن ولا الزمـان ولا الآودَّه
جئناك والطيـف الحبيب   مـحلـق في كل بلـــده
جئناك والعمـر اليتـيم   وقد أضـاع العمر مهده
جئناك والدمـــع الحزيـ   ـنُ على الجروح المستبـده
جئناك والسيفُ الصقيـلُ   قـد استعـاد اليوم غمده
خلدت للصوت الصـدى   والشعـر يحيى فيك مجده

فحسن التقسيم والبلاغة الموسيقية طبعت هـذه القصيـدة بطـابع الإخلاص والحب والصدق لشخص الشاعر حسين سرحان ، وتبدو المفارقة في أبيات باشراحيل قوية ، عندما جـاءه ومعـه محبـو الشـاعر الكبير ، لكنهم صدموا بفقده ، حيـث لا الزمـان هـو الزمـان ، ولا المكان هو المكان ، لأنك – يا شاعرنا – قد رحلت وأخذت معك كل شئ جميل .

ويؤكد باشراحيل على أن حسين سرحان ، وإن كان قد انتهـى أجله ؛ إلا أن الأجيال ستظل تذكره وتتذكره ، عن طريق مطالعـة

أسفاره الضخمة الشعرية ، التي يبدأ عندها تاريخ الشعر :

إن ينتــــه العمر المديـ ـد ستذكر الأجيال رفده

أو ينصرم شرخ الشبـا ب سيبـدأ التـاريخ عنده

صوت الرحيل

وتمتاز قصيدته هذه في رثاء الشيخ عبد الله المحمـد الحمـدان أبـو عليـوي لقدرتـه العجيبـة على موسـقة أبياتـه ، والتلاعـب الفـذ في تناغمها ، على غرار فرائد شاعر العرب الأكبر أبي الطيب المتنبي ، في مفتتح قصائده :-

أسرى مع الوجد في تذكـار محبوبي

وأستعيد زمـانـا غير مجلـوب

وكم أفيق على السلوى ويصرخ بي

صوت المنايـا وعمري رجع تغريب

أستنقذ العمو في صحراء قـاحلة

فيها الأمـاني اقتضت همي وتغـذيي

أمـضى ويقـلقني وقـتى ويفجـعنى

بـمـن أحـب فراقـا غير محسوب

ولأن هذا الشيخ كان صديقا للبر والإحسان ، فإن لياليـه الغـراء تسـأل الشـاعر عنـه ، وأيـن هـو الآن بعـد عمـر مديـد مـن النـوال والعطاء :-

كم ساءلتني الليالي عن صنـائعه

وكم يجيب لسـاني بالأعـاجيب

أوّاه يا شيخ جمع الناس مصطخب

وأنت بين الورى تهنـا بترحيب

أوّاه يا من بك الأخيار في شـرف

وقد نعـوك على بعـد وتقريب

كم من فقير وقد أثرت مغانمـه

من فيض جودك تعطى بين ترغيب

قد عاش بالبخل أقوام على سعـة

وأنت تحيا على إسعـاد مكـروب

ولأن صورة هـذا الرجـل الحـاتمي ، بـلا نظـير في عـالم اليـوم ، وجدنا باشرحيل يكنيه بأبي كل الأخلاق :-

إيه أبـــا كل أخلاق تعنُّ لـنـــا

تهمي سحائب من مُزنٍ ومن طيب

ووجهك الباسم النادي على خجل

يزينـــه البشـــر لا يرضى بتقطيب

دنياه كانت وأضحت خير خـــاتمة

ما غـــيرته صروف بعـــد تجريب

أبتاه ... طريق الشاعرية الأصيلة

وإلى أبيه ... ينطلق باشراحيل في رثائه الإيماني المتدفق ، كسـيل منهمر ، يمتلئ بالتقى والقناعة بمكانة أبيه عند ربه في جنات النعيم ، وأن الناس في الدنيا – ما تزال – تتهافت بذكره :

كلما مر ذكره طيب النـــاس

فهـــامـوا منه بعطـر حنـــون

عينه تزدهي بجنته الخضرا

ويزهو السنا بحور عين

يا أبي إنما المسافات تطوي

كل أعمارنا غيوب المنون

وينادى الشاعر أباه بأجمل لقب كان يحبه في الحياة الدنيا ، وهو أبو الحب ، مؤكدا على حقيقة ناصعة البياض ، هي أن ألم الفراق هو أشد ألم يعيب الإنسان .

يا أبا الحب ، والمحبة ثكلى

والأشقاء في مساء حزين

قد تطيب الجراح يوما فيوما

وجراح الفراق جرح السنين

وإذا هذه الحياة مضاءٌ

وسكون يمر إثر سكون

هكذا العمر رحلة تتهادى

وإذا نحن رهن سر اليقين

ليصل باشراحيل إلى الحقيقة الكبرى ، وهي أن جميع الخلائق تسير متجهة إلى ا لله ، وإلى لقائه يوم تبلى السرائر :

وإلى ا لله كم تســـير البرايـــا
أمره نـــافذ بكـــاف ونـــون

يا أبي والرحيل ، والصبر دوني
وثوانيـــك في ســـواد عيوني

ما افترقنا وأنت في كل عمري
أمل ضـــاحك الرؤى يرويني

وهكذا يتصبر الشاعر على مصابه الأليم ، بفقد والده ، ولا يملك إلا أن يلجأ إلى ربه ، فهو الركن الركين ، معتمدا على ثقافته الدينية ، وإيمانه القوي ، بلا جزع ولا نصب ولا شكوى ؛ لأنه لم يفارق أباه الذي يحيا معه ، بأخلاقه وكريم صفاته .

ويختتم مرثية باشراحيل إلى أبيه بتأكيده على أنه مهما عشنا في الحياة، فإن الرجعة والسكون هي خاتمة المطاف ، وأن إلى ا لله المثوبة :-

لم تزدني الحيـــاةُ غير يقينٍ

أن لله رجعتي وسكـــوني

وهو بالخلق راحم وكريـــم

وهو مولاك بين دنيـا ودين

ونلمح مما سبق أن باشراحيل لم يرث أباه رثاء العـوام ، البـاكين ، الجزعين ، المتخلين عن إيمانهم لحظة الفراق ، ولكنه كان في رثائه ثابت الجنان، قـوي الإيمـان ، رابـط الجـأش ، مستعصما بحبـل ا لله المتين ، قانعا أن والده يحيا في ظلال الخلد وملك لا يبلى ، ويحتسـبه عند مولاه .

أما ألفاظه هنا ... فهي ألفاظ الإســلام ، والتربيـة الإيمانيـة الـتي نشأ عليها ، حيث تفيض قصائده الرثائية بروح الرضا التام بما كتبـه ا لله له ، ومـا ابتـلاه بـه ، وهـو في هـذا الشـعور يسـير علـى النهـج الإسلامي وعلى سمت الشعر الملتزم ، شكلا ومعنى .

ويفاجئنا باشرحيل – كعادته – بقصيدة من أفضــل مـا كتـب ، في رثاء والده يرحمه ا لله – وكأنها قصة حياة للإنسانية جمعـاء ، أو

هي قصة باشراحيل مع رمز التقى والعفاف والخير والبر والإحسان ، رجل المواقف الصعبة، الذي برحيله ... رحلت المكارم . إنها قصة الأخلاق الإنسانية في أرفع صورها :-

يوم من الأيام طاب لنا السهر
بين البيادر والجداول والزهر
طير تعودني ينوح على الشجر
لم أدر أن الطير ينذر بالقدر
وأنا وإخواني الأماجد في سفر
ما بين خدر الشمس نستحي العمر
نتقاسم الأنفال من طلع أغر
نهديه للملأ المخدر بالضرر
كنا وكان الشيخ بالوجه النضر
في مهمه والحب في غدنا انتصر
وعيون سيدنا علينا تتبدر
وهو المطاع وأمره فيما أمر

الأمسيـــات وصورة تجلو الصـــور

من يفتح التـــاريخ يستقري الذكر

ويبهر باشراحيل القارئ بكم الصفات والسمات التي قلما تجتمع إلا للعظماء من أفاضل النـاس ، ومـن أجـل هـذا تسـابقت الأفـلاك والأجرام في الحديث عن مزاياه وأفضليته ، ومكانته الرفعية كحكيم من حكماء العرب :-

قالت حروف الشمس علمنا النظر

عقل توقـــد بالنضـــوج وبالفكـــر

قال الهـــلال وقد تغشــــاه الخضر

هـــذا حكيم العصـــر في يـــوم الفتر

من عانق الأطفال بالحب العطـــــر

من يحمل العطف الكبير المســـتمر

من قاسم الفقـــراء أمـــوال العمـــر

قد كان يزهد بالنعـــيم وبالـــدرر

ثم يهيب باشراحيل في تعداد مزايا والده حيث يتشوق إليه صوت الآذان وسور القرآن الكريم :

يشتاقه صوت المآذن والسور

ويقينه با لله بالذكر العطر

عف اللسان عن التندر بالبشر

إلا حديث الخير أو طيب السير

ولأن والده كان حكيما متمرسا ، فقد واجه الصعاب بعقل مستنير ، ودافع الظلم برجاحته وفطنته :-

يا سيدي والموج ينذر بالخطر

وسلكت بالسفن المليئة تحتذر

يا سيدي والريح تعصف تعتصر

ووقارك الضافي عليها ينتشر

يا سيدي وقراع إنسان أشر

تلقاه مغترا بثغر مزدهر

يا سيدي والظلم من صنع البشر

تأبى المكـــارم فيك ألا تنتصر

وإذا كان علية القوم يدنون الأثرياء والوجهاء من مجلسهم ، فإن أباه – على العكس من ذلك – كان يدني الفقراء ، ويقربهم إليـه ؛ لأنه خاشع القلب، تنهمر دموعه لرؤية هـؤلاء المسـاكين الـذي يـبر بهم ويعطف عليهم :–

يا صاحب الفقراء في ليل الكدر

كم كنت تدنيهم لمجلسك العطر

يا من يخـــاف ا لله بالحق ائتزر

والقلب يخشـــع والمدامـع تنهمر

وإذا كانت هذه هي صفات والده ... فإن الجنة بلا ريب ، هي مثواه .. إن شاء ا لله تعالى :

الوعد يا أبتي .. نعيمٌ مســتمر

في ساحة الخلد المنضد بالصور

يا رب متعه على تلك السـرر

ما بين جنـات جنيات الثمر

وبعقد مقارنـة سريعة بين قصيدتي باشراحيل عن والده ... نلحظ أنه في الأولى كان يخرج نفثاته الثكلى وآلامه المجروحة عبر قصيدته في صورة مباشرة ، أما القصيدة الثانية فجاءت بعد روية وامتداد زمني ... جعله يتفاعل مع جلال الحدث وأهميته ، ومن ثم يستعرض سيرة والده العطرة بشئ من التفصيل ، الباعث على رسم صورة كلية له ، تتآزر فيها السمات الشخصية ، والأخلاقية ، وتقدم للقارئ والده في أبهى حلة وأروع صورة ؛ وهي صورة الشيخ الجليل ... نصير الفقراء والمعدمين ، رجل الحق والبر والخير ، الذي بكته الأجرام السماوية في عليائها ، والأطفال في براءتها . وهي صورة كلية ... عبارة عن مجموعة من الصور الجزئية المتراكبة التي تجتمع عناصرها لتبرز شخص والده الكريم – رحمه الله –.

سفر العذراء الطويل

وهي قصيدة من الشعر الحر كتبها باشرحيل في رثاء عمته مريـم – رحمها الله تعالى – التي كانت بالنسبة له أنموذجا فريـدا في النقـاء والشفافية ، وصفاء النفس : –

قالت
سأختار السفر
طال المكوث
فأي شيءٍ أنتظر
زمنٌ قد افتقد النقاء
وشرابها
ماء طهور
تسقي به
حتى الطيور
ومعينها الصافي
يفيض به السرور

ولأنها عذراء ، فليست مثل نساء الأرض الأخريات ، هي الرمز الوحيد الباقي من زمن التضحية والوفاء ، وهي الصدر الحاني الذي يأوي إليه كل متعب وجهيد :-

أيامها مدن الفرح

جعلت مباهجنا

ملونة

كما قوس قزح

وعندما رحلت ... بكتها الحياة والأنواء والسحب والظلال ، وتحولت الحياة من حوله إلى بكائية بسبب رحيلها المفاجئ الحزين :-

بكت الحياة

عليك يا عذراء

في يوم الرحيل

وبكى الأقاربُ

والقبيل

ويرى شراحيل أن نفسها المؤمنة تمتاز بالفراسة والشفافية التي ترى بنور الله عز وجل ، فلقد كانت تنظر للغد ، وكأنما أطلعها المولى سبحانه وتعالى على أسرار الغيب والخلود ، ومن هنا رأت مكانتها في الجنان ، حيث الورود والروائح الذكية والظلال الهنيئة والحرير والقصور الشاهقة ؛ ولأجل هذا اختارت طريق الله ، على الحياة الفانية :-

وكأنما الرحمن

أطلعها على سر الخلود

فرأت منازلها

ظلالا أو ورود

صغيري ... معتز

وإلى الشاب الراحل معتز فاروق بنجر ... يرثي باشراحيل ريعان الشباب وأفوله وقت نضوجه ، يرثي ... البرعم المتفتح ، وقد استوى عوده ، يبكي نضارة الشباب ورحيله المفاجئ ، يبكي

ما خلفه بعـد سـفره الدائـم ، علـى نفـس أمـه وأبيـه، يبكـي غنـاءه وصداحه بأعذب الألحان :-

(معتز) ما أبصرت عيني مـــلامحـه

وقد بصرت به والموت حين دنـــا

تركت بعدك أجفـــانـــا مقرحـــة

والوجد في القلب نزف صار مرتهنا

يا قلب أمـــك والجرح العميق بدا

وقلب والـدك الـدامي إليـــك رنا

(معتز) غرد كما قد كنت بلبلنـــا

في روضة من ريـــاض الحسن مفتتنا

ومن شدة حب باشرحيل لمعتز ، وتعلقه به ، نراه يناديه قـائلا : إنك لم تغب عنا يا معتز ، بل سبقتنا إلى ذرى الفراديس :

(معتز) لا لم تغب بل أنت تسبقنـا

إلى أعالي الذرى تحيي الشباب سنا

تستاف من رحمة الديان في كـــرم

وتستزيد فتعطى ما غـــلا ثـمنـــا

عم بالجنـــان وريـــان المنى غرد

(معتز) فانعم بـمـا لا يعرف الوهنا

رثاء فقيد الكلمة

وتتجلى أريحية باشراحيل وصدقه مع الرموز المخلصة ، والأبناء البررة لأمتنا المجيدة ، وعلى رأسهم الكاتب الإسلامي أحمد محمد جمال رحمه الله ، الذي كان بقلمه .. قنبلة في وجه المارقين والحاقدين والموتورين ، وسوط عذاب يصليه على من يهين تراثنا وثقافتنا الأصيلة :

سر أنت حيث مشيئة الأقـــدار

تلقى الكرامة في رحـــاب البـــاري

يا منطق الحرف الصموت إلى الورى

بالحـق ، لا بالمـين ، والأضـرار

كم تنبري قلما وفكـــرا نــاهضـــا

لكـننـــا في غمـــرة التيـــار

لم تستهن يومـــا بمـــاضي أمـــةٍ

ســـادت ولايتـهـــا على الأمصار

جـــاهدت بالقلم الرفيـــع شجـاعة

فعـــدا بيـــانك مثـــل وهج النـــار

إلى أن يقول له : صادقا في قوله، عارفا لقدره ، راجيا أن يكون مِنْ الذي حظوا بنعيم مولاهم العميم يوم القيامة :-

تا لله قـــد عرفـــوا بأنك موقـن

في رحـمة المعبـــود للأخيـار

وبأن دارك شرعت أبوابـهـــا

ترنو إليك بفرحـــة الأنظـــار

فيهـا المبـاهج والمناهل ثرة

فيهـا الجنى من طيب الأثـمـــار

فلتهن بالعفـــو الكريـم وجنـة

فضـل مـن الرحمن للأبـــرار

دمعة ألم على فقيد الأمة

يوجه باشراحيل أنظار قرائيه ، ومنشدي شعره ، إلى أن كلماته هذه المرة تأتي في تأبين ورثاء العلامة الشيخ المرحوم عبد القدوس الأنصاري، بلا لوم ولا رياء، لأنها صادقة، من القلب إلى القلب، وتدل على عظيم محبته له، فهو أهل للتكرمة والتجلة والحفاوة :-

بالصبر بالدمع الغزير   بالود بالحب الكبير
أنا إن بكيتك لا ألا   م وإن نعيتك للدهور
تلك الرحاب تركتها   وتركت مقعدك الوثير
النور في يمناك يجلو   ظلمة الليل الكسير
خلفت من أثر العلو   م براعة بين السطور
فيها غروسك لم تزل   جذلى بأطياب الزهور

ويقدم باشراحيل أسانيده على صدق رثائه لهذا الرجل الذي استمعت له الدنيا مصغية ، لجدارته العلمية والأدبية :-

أصغت لك الدنيا وأنت   بما حملت لها جدير
حملوك قد حملوا الندى   والصرح بعدك قد يمور

حملوا رفـــاتك للثرى فجعلت للأجداث نــور

ما كرّمــوك وأنت أولى من تكرمه العصـــور !

وفـى رثـاء الشـاب محمـد أسـعد الفريـح .... تتبـدى عاطفـة باشراحيل الإيمانية أمام عظمة الموت، الذي لا تقـف أمـام قوتـه أيـة قوة؛ مخاطبا والده ... بأسلوب ينضح إيمانـا ويقينـا وعـزاء، بـأن مـا عند الله هو خير مما في الدنيا الزائلة :-

ودعه ، ودع حبيب القلب والكبـد

وقل له لجنـــان الخـــلد يا ولدي

حقا هو الموت من في الكون ينكـره

وكلنا في انتظـــار الموعد الأبـدي

سرى (محمد) نحو النور مندهشـــا

وغـاب في رحمة الديـــان والأحـد

رأى التغيـــوب وفى أندائهـــا ألق

رأى النعيم وصــوت البلبل الغـــرد

وإلى أبي محمد ... ينصحه باشراحيل بالتسلح بسلاح الصبر لأننا مبتلون في هذه الدنيا بفقد الأحبة :-

(أبا محمد) صـــبرا أنت ممتحـن
والصبر با لله يشفي حرقة الكمد
والوعد أقرب واللقيـا مبشـــرة
نلقى الأحبة في الجنـــات والغرد
وكلنا رهن أقدار تبـاغـتنـــــا
وما يرد قضـــاء ا لله من أحـد

وإذا كـان باشـراحيل قـد جمـع رثـاءه في ملـف خـاص ، ينتظـم الشخوص التي فجع برحيلها ، فإنه اختص الملك الراحل فيصـل ابـن عبد العزيز بمرثية في ديوانه "معذبتي" ولعل هذه القصيدة تكون دليلا على عذاب الشاعر الذي أتعبه رحيل الفيصل ؛ فكان رحيلـه عذاباً شاقا في حياته ، ولعل موته المفاجئ الذي حـل بـدون مقدمـات زاد من هول الفاجعة ، خاصة أن الملك فيصل كان محبوبـا في الأوسـاط العربية :-

أفقت على فاجعات الزمــان

وسيف القضاء وحكم القـدر

وصوت النذير يقول انهضـوا

فقد حل أمر أزاغ البصـــــــر

لقد مات من كان يوما لنــــا

ظلال الأمان ، ونفح الزهـــر

لقد مات ، أي التفات حزين

وأي التياع ، يهــــز الحجـر

فلقد كان الجميع ينام هــانئ البـال ، قريـر العـين ، بينمـا الملك فيصل يسهر على تحقيق أحلامهم وعلى شؤونهم :-

أضاء الطريق السوي القويم

وعلمنـــا غاليـــات السير

وهز اليهود فأحـــــــلامهم

تهاوت وأيـــامهم تنحسـر

ولهذا يخاطبه باشراحيل ، بلهفة وترقب ، وحديث ملـؤه الدعـاء بخير الجزاء :-

أفيصل إنا سئمنا الحيـــــاة

فكيف السبيل وأين المقــــر

عزاء الأحبة فيك الدعـــــاء

فأنت الحبيب العزيز الأبــــر

سيجزيك ربي خير الجـــزاء

ومنزلك الخلد نعم الـمقــــر

الرثـاء وإسقـاطـات الألـم

ضـاع الوفـاء .. فكيف لا أتألم
والجرح ينزف .. والجوى لا يرحم
أمر مطـاع للزمـان إذا رمى
إن القضـاء موكل .. ومحتم

هذا هو مطلع قصيدة كيف لا أتألم .. التي قدم لها باشراحيل بجملة نثرية ، قال فيها (أبحث معي عن الوفـاء .. فهو أنبل صديق لي ، فإذا وجدته فدلّني على مكانه ، علني أداوي آلام الغدر) . ولم يوضح لنا من هو المخاطب بهذه العبارة خاصة أنه في معرض رثائه لهذه القيمة الغالية التي توارت بالحجاب عندما تجاهلها الناس وأعرضوا عنها وهي (فضيلة الوفاء) اتهم الناس بأنهم ذئاب كشرت عن أنيابها . وهذا أراه مجازاً مقصوداً حيث أطلق الكل وأراد الجزء .. فيقول :

إنسـان هذا العصر ذئب كاشـر
عن نـابه .. متوحش لا يرحـم

فلو أخذنا هذا البيت على إطلاقه ، فإننا نظلم الشاعر والقصيدة في آن واحد لأن الأبيات الأخرى في القصيدة توضح أن الدنيا هي المتهمة بتأجيج الآلام في قلب باشراحيل وكل الشعراء بل كل الناس أيضاً بدليل ختام القصيدة بمناجاة الدنيا وعتابها والتبرم منها وإبداء الزهد عنها ، رغم انه كان من قبل يبدي الرضا التام وعدم التبرم ، ولكن هذه هي الدنيا ، والإنسان بصفته خليفة الله في أرضه مسئول عن تفجر هذه الآلام من حين لآخر ، ولو أنني كنت أفضل أن يظل باشراحيل على مذهبه الذي وضعه حسب ما بيناه في بداية الدراسة عندما قسم الناس إلى فئتين (اللاهون) و (أصحاب المبادئ) ، إلا أن المبالغة الشديدة تظل سمة مشتركة عند الشعراء خصوصاً عندما تعترضهم الآلام .

والأمر عند باشراحيل كما كتب الدكتور / عباس عجلان في مقدمة ديوان النبع الظامي : (الصدق مختف والوفاء ضائع والأمانة نادرة ، وباشراحيل يحزن لفقدان القيم وضياع الوفاء) .. وإن كان باشراحيل يتألم ويحزن عند ضياع المعاني النبيلة فإنه يصرخ

ويستصرخ عند ضياع الأرض والعرض كما يقول في قصيدة (رصاصة من فلسطين) :

فلسطيني .. ونار الثأر تصرخ في شراييني
أنام على لظى النيران أسقيها .. وتسقيني

فإذا كانت نار الثأر تصرخ في شرايينه وتسقيه من لظاها فإن صراخها المعنوي يتحول إلى صراخ حسي عند الشاعر ، وهذه الصرخات ومثيلاتها نجدها تدوي كثيراً عبر قوافي باشراحيل ... وفي ديوان قلائد الشمس الذي يوجهه إلى أدباء أمريكا صراحة ويتساءل قائلاً :

فلسطين التي ترثى دماء شبابها المرد
لمن تشكو !؟!
وما تلقاه في هذي المتاهة
مضحك .. مبك

معنى ذلك أن باشراحيل يتخذ من الرثاء وسيلة تصل به إلى غايات نبيلة بالإضافة إلى كونها متنفس يتخفف بها الشاعر من

أثقال الحياة ، ولا يكتفي بمراثيه هو .. ولكنه ينوب عن فلسطين في رثاء أبنائها وعن لبنان وعن الأمة الإسلامية ، وهذا يوضح مدى ارتباطه بالوطن حيث يتفاعل مع إسقاطات الألم التي تصيب الأمة العربية أو الإسلامية في أي عضو من أعضائها وينبري للذود عنها من خلال كل أنواع البيان وأغراض الشعر مركزاً على (الرثاء) لاستنهاض الهمم .

أما إسقاطات الألم على أسلوبه في رثاء الأحباب فإنها تتجلى بوضوح بين قوافيه ولكنها لا تخرجه عن الرزانة والتماسك .. والمبالغة الشديدة في الأحزان والآلام التي نجدها كثيراً في رثائه للقيم أو المعاني السامية التي تغيب عن مجتمعنا تباعاً .. لا تجد لها أثراً عند رثاء الأشخاص ، بل يحل محلها معاني الرضا بالقضاء والقدر والدعاء للمرثي بالجنة والرضوان . وهذا أراه أثراً من آثار الأدب الإسلامي والنشأة الإسلامية على إبداعات باشراحيل .

الخاتمة

لعله من توارد الخواطر أن تجمعني مع الشاعر المبدع باشراحيل أمور كثيرة في صياغة الإبداع والأسلوب ، مع أنه لم يقرأ أشعاري من قبل حيث أنني مقل جداً ودخلت إلى مضمار الشعر بعده بسنوات عديدة ، ولا أنشر قصائدي إلا في نطاق ضيق جداً . وفي نفس الوقت ، لم أكن قد قرأت له من قبل عندما كنت أكتب الشعر حتى نهاية القرن العشرين .

والهموم التي أفرد لها باشراحيل دواوينه الثرة ، هي ذات الهموم التي أوجزتها في قصائدي القليلة مع أننا لم نتعارف ولم نلتق .

وهذا قد يفسر سر انجذابي إلى قصائده وتقديمي هذه الدراسة المتواضعة في جانب من جوانب إبداعاته الكثيرة فهل هذا من قبيل قول المصطفى صلى الله عليه وسلم : "الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تنافر منها اختلف" ؟؟ ربما ... ففي

قصيـدة بـدون عنـوان ١٩٨٠م في ديـوان الهـوى قـدري ، يقـول باشراحيل :

آليـــت ألا أستكين لشـــــدة

والعزم ملء جوانحي وضـــلوعي

حتى أحقق غـــاية أصبو لـهـــا

وأضيء في كل الدروب شموعي

وأزيل أشـــواك الحيــاة بهمتي

وأمد في بحر الـهـنـــاء قلــوعي

وهي تتشابه في مضامينـه مـع قصيـدة لي بعنـوان (انتفاضـة) مـن ديوان الجرح وأحلام العودة ١٩٩٥م أقول فيها :

لن أستكين على شفا أمــل صعب المنال ، يطن في أذني

أبداً سأمضي للعلا ، أبــداً وا لله أســـأل أن يوفقـــني

فإذا مضيت فتلك شيمتنـــا وكذا فعـــال الكيس الفطن

وهـذا على سبيل المثـال ، لا الحصـر ... فمثـل هـذا التقــارب الشديد كثير جداً بين أطروحـــاتي وأطروحات باشراحيل ، وهي

دليل على مدى التلاحم الوجداني بيننا .

وهناك أمر آخر ، وهو أن الأحزان التي عايشتها في حياتي تفوق كثيراً الأفراح التي مررت بها على استحياء .. وقصائد باشراحيل في الرثاء صادفت هوى في نفسي ، فداعبت شجوني وتزاوجت كلماته مع أنغامي كما تجاوبت أحزاني مع قصائده وكأنه الاستشعار من البعد الذي يتحدث عنه أهل العلم .

ولا أريد أن أقول أكثر من ذلك حتى لا يؤخذ كلامي على أنه في إطار التقييم لإبداعات باشراحيل .. فهو في غنى عن ذلك .. سواء كان مني أو من غيري .

ولكني أختتم جولتي في دروب باشراحيل بأبيات من قصيدة (الغربة) من ديوان النبع الظامي ، يقول فيها :

أنا الإنسان ... كل الأرض ضاقت من مشاويري

تسائلني متى ألقي بأحمالي ، وتأثيري

فـتـعـيـيني بآمـــــال ... وأعييهــــا بتفكيري

وإن همت غوائلهــــا أقول لشقـــوتي دوري

كتاب الأرض مقدوري

المحتويات

المؤلف في سطور

- محيي الدين حسن صالح
- من مواليد قرية (قسطل) بالنوبة سنة ١٩٥١م.
- محاسب – عمل مديراً لمكتب الخطوط الجوية السودانية بأسوان من ١٩٨٣ إلى ١٩٩٥ ثم تفرغ للأدب والدراسات التراثية .
- عضو عامل باتحاد الكتاب بالقاهرة – عضو عامل برابطة الأدب الإسلامي العالمية وأمين رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة .
- ساهم في إصدار صفحة الأدب في جريدة أسوان في الثمانينيات ، ومجلة (ترهاقا) بأسوان في التسعينيات ، ومجلة (إشراقة نوبية) بالقاهرة.
- شارك بكتابه "الأدب وأثره في الدعوة" في مؤتمر دولي بنفس العنوان بجامعة الأزهر عام ١٩٩٩م.
- شارك ببحث (الثقافة الإسلامية وإسقاطات العولمة) في مؤتمر الجامعات الإسلامية ببور سعيد ١٩٩٩م .
- شارك ببحث (الزمان والمكان في الأدب الإسلامي) في مؤتمر تقريب المفاهيم عن الأدب الإسلامي عام ٢٠٠٢م بالقاهرة .
- أصدر مجموعة من الكتب والدراسات والدواوين الشعرية :

١- ياقومنا أجيبوا داعي الله	دار المقطم للنشر والتوزيع
٢- ديوان الجرح وأحلام العودة	مركز الدراسات السودانية
٣- ديوان ثورة القوافي	مركز الدراسات النوبية
٤- دراسة في ديوان (سرب البلشون)	مركز الدراسات السودانية
٥- دراسة (إبراهيم شعراوي متصوفاً)	النادي النوبي الثقافي
٦- الأدب وأثره في الدعوة	رابطة العالم الإسلامي
٧- الأدب في مفترق الطرق	المؤلف
٨- رؤى نوبية	النادي النوبي الثقافي
٩- ديوان فيض المشاعر	النادي النوبي الثقافي
١٠- ديوان يا ريم مهلاً	النادي النوبي الثقافي
١١- الرثاء في شعر باشراحيل	دار المقطم للنشر والتوزيع

تحت الطبع :

١- التعتيم الإعلامي وقضايا أخرى

٢- الألعاب الشعبية النوبية

- نشر كثيراً من المقالات والبحوث والقصائد في مختلف الصحف والمجلات العربية .